مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (٨)، العدد (٣)، ص ص ١٠٤٧-١٠٩٩، (رجب ١٤٣٦هـ/إبريل ٢٠١٥م)

الصلة بين الأصول الفكرية للتنوير، والليبرالية، والعلمانية، والحداثة، وما بعد الحداثة

د. آمال بنت عبد العزيز العمرو
الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض

ملخص البحث. ترتبط بعض المذاهب الفكرية ببعضها، وتتداخل أصولها الفكرية لأسباب عديدة. ويشرح هذا البحث بإيجاز مجموعة من تلك المذاهب والتيارات الفكرية؛ كالتنوير والليبرالية والعلمانية والحداثة ومابعد الحداثة. ويبين تاريخ ظهورها وأبرز أعلامها، ثم يبين وجه ارتباط هذه المذاهب ببعض. حيث اتضح أن التنوير قاعدة ظهرت منه الليبرالية والعلمانية والحداثة، وأن مابعد الحداثة ثورة على تلك المذاهب، ونقض لها. وبعد عرض المذهب وبيان ارتباطاته الفكرية يتم نقده بإيجاز، وبهذا تتعرى تلك المذاهب، ويتبين الآثار السيئة لها على الفرد والمجتمع، ورفض بعض عقلاء الغرب لها، وفيه تحذير للمجتمع المسلم أن لا ينخدع ببريق شعارات تلك المذاهب.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

يتزاحم في الساحة الإسلامية الكثير من المذاهب الفكرية الوافدة من الغرب، بقي بعضها بأصوله الغربية، بينما حاول البعض أسلمة شيء من هذه المذاهب. وفي فهم العلاقة التي تربط الأصول الفكرية لهذه المذاهب ببعض، تكتمل الصورة لدى المراقب والباحث، ويتضح له النسيج الفكري الغربي بصورة تكاملية تعري تناقضاته ونتاجه على المجتمع العالمي.

وقد كان التنوير تيارا ومنهجا يضم بداخله العديد من المذاهب الفكرية، حيث كان التنوير مؤثرا في ظهور بعض المذاهب الفكرية، كما أنه انتقد من قبل تيارات أخرى.

وفي هذا البحث سوف تتضح العلاقة بين التنوير والعلمانية والليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة، كما سيتضح حقيقة تراث التنوير الذي لازال يطالب به الكثيرون في البلاد الإسلامية. وأن "ثمرة قرون طويلة من الاستنارة كانت إلى حد ما مظلمة، ولذا راجع الإنسان الغربي كثيرا من أطروحاته بخصوص الاستنارة... ومع هذا يقوم الفكر العلماني العربي بنقل أطروحات الاستنارة من الغرب بكفاءة غير عادية"[(١)]. وهذا مفكر مفكر الحداثة هابرماس Habermas[(٢)] يقول بصراحة: "إن الثقافة الفكرية المزهوة بنفسها لعصر الأنوار انفصلت عن الدين بعملية انشقاق، واضعة إياه(أي الدين) إلى جانبها

(١) انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٨٦).

(٢) يورغن هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر ولد عام (١٩٢٩م).

ومصطفة إلى جانبه. إن تردي الدين يؤدي إلى انفصال الإيمان عن المعرفة انفصالا تعجز الأنوار عن تجاوزه بوسائلها الخاصة"[٣].

لقد كانت هذه المذاهب طريق أوروبا في بحثها عن الحقيقة والنعيم على الأرض، ويظهر الجانب الحاسم في تاريخ الفكر الغربي في التفاعل -بل الحرب - بين الفلسفة والدين والعلم، وما نجم عن ذلك من مذاهب وتيارات فكرية شكلت الثقافة الغربية، التي بدورها أثرت على العالم. وكتب بول هازار Paul Hazard (١٨٧٨ -١٩٤٤) عن أزمة الوعي الأوروبي، كما كتب غيره عن آلام العقل الغربي، بل عن انتحار الغرب، في سبيل عرض الثقافة الفكرية والفلسفة الأوروبية، وما مر بها من صراعات ومحن، ما يوضح الأزمة الفكرية والدينية التي مر بها الغرب، وكيف حاولوا الخروج من هذه الأزمة بجعل الدين قنطرة عبروا من فوقها ثم هدموها، وأقسموا ألا ينظروا للخلف، وشخصوا بأبصارهم لمستقبلهم قائما على الإنسان الإله بعقله الجبار، وإرادته المطلقة، وحريته التي لا قيود لها، ظانين أنهم عثروا على الفردوس المفقود، معتقدين أنه جنة البشر على الأرض. ومضى على ذلك قرون، ارتد المجتمع الغربي بعدها خاسئا وهو حسير، يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، فاقدة للقيم، خاسرة لمعيار الحقيقة، قد عدمت ذاتها ووجودها.

هدف البحث

كشف الصلة الفكرية بين التنوير والليبرالية والعلمانية والحداثة وما بعد الحداثة، ويتضمن ذلك توضيح الأصول الفكرية لهذه المذاهب، ثم نقدها بإيجاز.

تقسيم البحث

قسمت البحث إلى خمس مسائل، وخاتمة، كالآتي:

---

(٣) هابرماس، القول الفلسفي للحداثة ص(٣٦).

المسألة الأولى: التنوير.

المسألة الثانية: الليبرالية وعلاقتها بالتنوير.

المسألة الثالثة: العلمانية وعلاقتها بالتنوير والليبرالية.

المسألة الرابعة: الحداثة وعلاقتها بالتنوير والعلمانية.

المسألة الخامسة: ما بعد الحداثة وعلاقتها بالحداثة والتنوير.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج.

وقد راعيت الاختصار في العرض والنقد، مقتصرة على أصول الردود، وحيث قد مثلت هذه المذاهب واقع الفكر الغربي، حرصت أن تكون بعض القراءة النقدية بأقلام غربية، كي لا يقال عنها إنها رؤية لم تفهم الحضارة الغربية وفكرها، أو أنها نظرة مشخصنة من واقع محدود.

هذا والله أسأل أن يجعله عملا خالصا متقبلا، وأن ينفع به. والحمد لله رب العالمين.

المسألة الأولى: التنوير

١- تعريف التنوير

التنوير حركة فكرية لا دينية ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، آمنت بالعقل مصدرا للتشريع والأخلاق والمعرفة، وسبيلا لتحقيق الحرية والتقدم، ونزعت كل سلطة فوق العقل والعلم، جذورها ممتدة في عصر النهضة[٤]. يقول إيمانويل كانط Immanuel Kant(١٧٢٤ -١٨٠٤) -وهو من أشهر مفكري عصر التنوير -: "إن

(٤) انظر: آمال العمرو، التنوير مفهومه وأصوله، مجلة الدراسات العقدية، وانظر نحو هذا: موسوعة لالاند الفلسفية ص(٧٥٩).

بلوغ الأنوار هو خروج الإنسان من القصور الذي هو مسؤول عنه. والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير، وإن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير"[٥].

٢- تاريخ ظهوره

يؤكد بعض المؤرخين أنه ابتداءً من سنة ١٦٧١م حلت كلمة التنوير محل الفكر والذكاء، وانتشرت بين الناس للدلالة على الفخر بتقدم الإنسان[٦]، ويرى المؤرخ الفرنسي بول هازار أن أفكار التنوير قد أفصح عنها من قديم، نحو عام ١٦٨٠م[٧]، وبعد انتشار المصطلح ظهرت محاولات لتحديد معناه، ومن تلك المحاولات السؤال الذي طرحته صحيفة بريلينتش موناتشرفت Berliniche Monatsschrift في برلين عام (١٧٨٤م) على قرائها، وطلبت منهم أن يرسلوا إجاباتهم عن: ما هو التنوير؟[٨] فجاءت إجابات عدد من الفلاسفة والمفكرين، وأشهر تلك الإجابات كانت مقالة كانط: ماهي الأنوار. وفي العام ١٧٨٩م بات القول"إننا نعيش ونحيا في عصر التنوير"[٩] مألوفا.

---

(٥) إيمانويل كانط، جواب على السؤال: ماهي الأنوار، ص(٨٥).وهو ضمن كتاب ثلاثة نصوص؛ تأملات في التربية، ما هي الأنوار، ما التوجه في التفكير، لكانط.

(٦) انظر: الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير ص(٧٢).

(٧) انظر: بول هازار، أزمة الضمير الأوروبي ص(١٠).

(٨) انظر:كانط، جواب على السؤال:ما هي الأنوار، ص(٨٥)، ميشيل فوكو، ماهي الأنوار، ص(١).

(٩) بول هازار، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، ص(٤٣)، نقلا عن الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٧٢).

٣- أصول التنوير

إن كان ثمة علامة بارزة للتنوير فهي العقلانية، فقد كان عصر التنوير عصر العقل. وكانت الاستنارة رؤية مادية عقلانية تدور حول رؤية محددة للعقل وعلاقته بالطبيعة، وتتفرع عنها رؤية للتاريخ والأخلاق والجمال[١٠]. لكن عقلانية التنوير لم تكن مقتصرة على علوم عقلية، بل هي وفق برينتون Brinton (١٨٩٨ -١٩٦٨) مصطلح عام وشامل، ويندرج تحته: المادية والوضعية واللادينية والتأليه الطبيعي أو الربوبية[١١]. حيث تنزع العقلانية إلى إسقاط كل ما هو خارق للطبيعة أو غيبي من الكون، وقد أبقت فقط على الطبيعي الذي يؤمن المفكر العقلاني أنه قابل للفهم في النهاية عبر مناهج البحث العلمي[١٢].

وقد آمن المستنيرون بالنعيم العقلاني الطبيعي على الأرض، وكفروا بنعيم الآخرة. وآمنوا بفردوس على الأرض، وبالتقدم الذي يأتي عن طريق انتشار العقل. وبقدرة الإنسان على بلوغ الكمال، وقد كان نهاية القرن الثامن عشر شاهدا على مظاهر التقدم المادي، وانتشار الخدمات وسبل الراحة[١٣]. وثمة تطور خطير في الموقف من العقل في الفكر التنويري، حيث "لم يوضع ضدا للدين فقط، أو يعرف بتعارضه مع الدين؛ بل منح بصورة ضمنية المكانة العقائدية المطلقة للدين نفسها، وبهذا المعنى فإن العقل كان مرادفا للعقيدة الإلهية"[١٤].

---

(١٠) انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٩٠).

(١١) انظر: كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ص(١٢٢).

(١٢) انظر: تشكيل العقل الحديث، ص(١٢٠).

(١٣) انظر لتوضيح ذلك: تشكيل العقل الحديث ص(١٧٠-١٧١) (١٩٨) (٢٠٠).

(١٤) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٠).

وقد تمثل أشهر نتاج لمجموعة من فلاسفة التنوير بموسوعة العلوم والفنون التي أشرف عليها ديدروDiderot (١٧١٣ -١٧٨٤)، وشارك فيها دالمبير D'Alembert (١٧١٧ -١٧٨٣)، وفولتير Voltaire (١٦٩٤ -١٧٧٨)، وروسو Rousseau(١٧١٢ -١٧٧٨)، وهولباخ Holbach (١٧٢٣ -١٧٨٩) وغيرهم، ولم تكن تلك الموسوعة مجرد مصدر من مصادر العلم بل كانت "معرضا شاملا للحركة التي قام بها أعداء الدين، وكان صاحبها يقصد بها تحويل الناس عن المسيحية وما فيها من خطيئة آدم وحواء، إلى فهم جديد للحياة، يرون فيه الدنيا مكانا جديرا بالإصلاح وترقب السعادة، مكانا فيه شرور ولكنها لا تعود إلى نقص أصيل في الطبيعة الإنسانية، وإنما تعود إلى فساد النظم الاجتماعية أو اعوجاج أساليب التربية والتعليم. لقد بذل ديدرو وروسو كل بأسلوبه الخاص جهودا متواصلة لكي يصرفوا اهتمام الناس عن مذاهب الدين ويوجهوه إلى إصلاح المجتمع"[١٥].

وقد نفى كتاب الموسوعة أي صورة للإيمان الديني المعتمد على المعجزات، والتي يرون أنها عقائد تخالف قوانين العقل. وفي مادة "اللاتدين" تتحدث عن حرية عدم اعتناق أي دين على الإطلاق، وأن هذا ليس له نتائج خطيرة على المجتمع لأن الأخلاق مستقلة عن الدين[١٦]. وليس في عقيدة التنوير مكان لذات إلهية يقصدها البشر بصلواتهم، وهي لا تسلم بوجود خوارق للطبيعة[١٧]. وفيما جاهر هولباخ، وجوليان دي لامتري، وكلود هلفتيوس بأنهم ملاحدة ماديون، آمن آخرون بنوع ما

(١٥) ج.بيوري، حرية الفكر ص(١٢٠).

(١٦) انظر:غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦١).

(١٧) انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢٠٠).

من المسيحية. وآمن البعض الآخر بالدين الطبيعي أمثال فولتير وروسو[١٨].حيث كانت الفكرة الرئيسية فيه الإله الربوبي الذي دفع الكون إلى الحركة وفق قانون طبيعي ثم تركه يجري حسب نظامه الخاص[١٩]، لكن هؤلاء الفلاسفة ليسوا حقيقة مؤلهين بل ولا حتى ربوبيين مهما أسرفوا في استعمال كلمة الرب، إنهم يفترضون مبدأ هو القوة المحركة للكون في شموله[٢٠]، وحقيقة مقولتهم إلحادية، تفضي إلى إنكار وجود الله.. وانحاز أدب القرن الثامن عشر انحيازا طاغيا إلى جانب الفكر التنويري، لكن رغم ذلك استمرت الكنائس الرسمية في التعليم وأداء طقوسها، ولم تنقطع طوال هذه السنين جماهير العامة، وعدد كبير من الطبقتين المتوسطة والأرستقراطية، عن مراعاة أساليب المسيحية التقليدية[٢١].

أما الحرية التي طالب بها فلاسفة التنوير فقد كانت تشمل الحرية السياسية، والحرية المدنية، والحرية الفكرية[٢٢]، حيث رأوا أنه"ينبغي توافر الحرية الكاملة للاعتقاد والمناقشة، لأي مبدأ يعتقد أصحابه أنه عقيدة خلقية مهما اعتبرناه منافيا للأخلاق"[٢٣]. وفي ضوء القدر الكبير من الحرية الفكرية ظهر في القرن التاسع عشر صور متباينة من المادية والوضعية والبراجماتية وغيرها، وتشعب التنوير وانقسمت آماله وبرامجه السياسية [٢٤]، فجاءت رومانسية مطلع القرن التاسع عشر عقب النزعة

---

(١٨) انظر: آمال العمرو، بحث التنوير، مفهومه وأصوله، آلام العقل الغربي، ص(٣٦٩)، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٢).

(١٩) انظر:تشكيل العقل الحديث ص (١٩٩)، بحث التنوير، آمال العمرو.

(٢٠) انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢١٩).

(٢١) تشكيل العقل الحديث، ص (١٩٤-١٩٥).

(٢٢) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٧).

(٢٣) ج.بيورى، حرية الفكر ص(١٧٠)، وانظر: جون ستيوارت مل، عن الحرية، ص(١٥) (٢٣).

(٢٤) انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢٢٠) (٢٣٥).

الكلاسيكية للقرن الثامن عشر، وجاءت النزعة المثالية واتجاه التأكيد على البنية الكلية العضوية في أواخر القرن التاسع عشر عقب النزاعات المادية لعصر التنوير، وذاع إحياء التقاليد المسيحية في القرن التاسع عشر، عقب النزعة الربوبية، والنزعة الإلحادية، ونزعة الشك التي كانت تظهر بين الحين والحين، ونزعة معاداة رجال الدين في القرن الثامن عشر[٢٥].

وباختصار فإن التنوير قد شكل بنقده للدين وتهميشه، وتأليهه للعقل ومطالبته بالحرية، وتقديسه للفردانية، وخلعه كل القيود والسلطات التي تكبل الفرد، قاعدة وبيئة ظهر منه العديد من المذاهب الفكرية كالعلمانية والليبرالية والحداثة. كما ظهرت حركات مضادة لعقلانية التنوير، حيث أدى الاعتماد المطلق للعقل والحس، مع توافر جو الحرية المفرطة إلى فلسفات لا عقلية وفوضوية معاكسة.

المسألة الثانية: الليبرالية وعلاقتها بالتنوير

١- تعريف الليبرالية

الليبرالية Liberalism مصطلح وُضِع للدلالة على مذهب اقتصادي حر، وقد طرأ على دلالته تغيير وتعديل وفق ظروف إخفاقه ونتائجه على المجتمع.

يقول جون غراي John Gray [٢٦]: " من الممكن تقسيم الليبرالية بسهولة وبشكل لاخلاف عليه إلى نوعين أحدهما كلاسيكي، والآخر تعديلي، حيث يكون الليبراليون

(٢٥) انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢١٧).

(٢٦) فيلسوف سياسي واقتصادي بريطاني معاصر، ولد عام ١٩٤٨.

الكلاسيكيون مخلصين في المقام الأول للحرية السلبية، ويكون التعديليون ضربا من الليبراليين الرفاهيين أو المساواتيين"[٢٧]. ولذا فالليبرالية قسمان:

أ) الليبرالية الكلاسيكية

تتركز على إطلاق الحرية الكاملة للفرد، ونزع الوصاية السياسية والدينية والأخلاقية. وهي تتنوع إلى ليبرالية سياسية واقتصادية مؤثرة على الدين والأخلاق.

أما تعريف **الليبرالية السياسية** فهي: "مذهب سياسي يرى أن من المستحسن أن تزداد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية، بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قدر من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم"[٢٨].

كما عرفت بأنها "مذهب سياسي فلسفي يرى أن الإجماع الديني ليس شرطا لازما ضروريا لتنظيم اجتماعي جيد، ويطالب بحرية الفكر لكل المواطنين"[٢٩].

وأما **الليبرالية الاقتصادية** فهي: " مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لا ينبغي أن تتولى وظائف صناعية ولا وظائف تجارية، وأنها لا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم"[٣٠]. ويتضمن هذا حرية الملكية الخاصة، وحرية التعاملات التجارية. ورفع يد الدولة عن التدخل في المعاملات الاقتصادية. وهي بهذا المعنى تتعارض تماما مع الاشتراكية.

---

(٢٧) جون جراي، ما بعد الليبرالية ص(٤٣٥)، عن موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين، الدميجي ص(٨٧).

(٢٨) لالاند، الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٥).

(٢٩) لالاند، الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٦)، وانظر:جميل صليبا، المعجم الفلسفي(١/٤٦٥).

(٣٠) لالاند، الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٦).

ب) الليبرالية المعاصرة أو الجديدة

١- التطور الذي حصل لليبرالية الاقتصادية عبر النظرية الكينزية:

جاءت الأزمة العالمية عام ١٩٢٩ لتشكل ضربة هائلة اهتز لها الاقتصاد الرأسمالي إلى درجة الانهيار، وظهرت النظرية الكينزية بوصفها محاولة لتعديل النمط الاقتصادي الرأسمالي حيث يقترح الاقتصادي البريطاني جون كينزJohn Keynes (١٨٨٣ -١٩٤٦) في كتابه "النظرية العامة" (سنة ١٩٣٦)[٣١] حلاً مرتكزاً على ضرورة تدخل الدولة، وقد أسَّسَ حله هذا على تحليل شامل للاقتصاد السياسي الليبرالي وتطبيقاته، منتقداً النظرية الليبرالية الكلاسيكية في نظرتها لسوق الشغل حيث لم تنتبه لمشكلة البطالة ولم تبلور معالجات لها. وفي هذا السياق ستتجه المدرسة الكينزية إلى إنجاز تعديل كبير في النظرية الليبرالية حيث نادت بوجوب تدخل الدولة بدل ترك الفعل الاقتصادي مرتهناً بفردانية "دعه يعمل دعه يمر"، وهي بذلك رؤية تقلل من استقلالية وحرية الفعل الاقتصادي، وهذا ما أسماه بعضهم بإنقاذ الليبرالية من فوضى الحرية[٣٢].

٢- الليبرالية الجديدة:

كان التوجه لليبرالية الجديدة منذ السبعينيات من القرن المنصرم، حيث هيمنت الليبرالية الجديدة على صيغة الخطاب الاقتصادي المعاصر[٣٣].

وسبب ذلك أنه في بداية السبعينات (١٩٧٣م) شهد الاقتصاد العالمي أزمة جديدة عقب ارتفاع سعر النفط، وهي أزمة جديدة لم تكن معروفة، وتتمثل جدة هذه

---

(٣١) انظر: جون كينز، النظرية العامة للتشغيل والفائدة والنقود.

(٣٢) انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١١١)، جون كينز، النظرية العامة للتشغيل والفائدة والنقود، جيمس فولتشر، الرأسمالية ص(١٥٥-١٦١).

(٣٣) ديفيد هارفي، الليبراليون الجدد ص(١٣-١٥).

الأزمة في اقتران التضخم بالبطالة وهو اقتران نادر الحدوث في تاريخ الاقتصاد الرأسمالي. لذا برزت رؤى اقتصادية عملت على بلورة إطار نظري مغاير للإطار الكينزي، واقترحت تقليل نفقات الدولة والتراجع عن النظرية الكينزية بالعودة إلى المنطق الليبرالي القاضي بوجوب إطلاق الفعل الاقتصادي من كل قيد خارجي واختزال سلطات الدولة من مهامها ونفوذها، وجعل السوق كينونة مستقلة بذاتها. هذا الحل سيجري الاصطلاح على تسميته بالليبرالية الجديدة[٣٤].

تعريف الليبرالية الجديدة: هي "نظرية في الممارسات السياسية والاقتصادية تقول بأن الطريقة الأمثل لتحسين الوضع الإنساني تكمن في إطلاق الحريات والمهارات التجارية الإبداعية للفرد، ضمن إطار مؤسساتي عام يتصف بحمايته الشديدة لحقوق الملكية الخاصة، وحرية التجارة، وحرية الأسواق الاقتصادية. ويقتصر دور الدولة في هذه النظرية على إيجاد وصون ذلك الإطار المؤسساتي الملائم لتلك الممارسات"[٣٥].

إن التوجهات النيوليبرالية لا جديد فيها سوى مزيد من إطلاق النزوعات التي أفصح عنها الفكر الليبرالي الكلاسيكي، مع تعميق البعد المنفعي، وتأسيس الفضاء المجتمعي على مبدأ اللذة بمدلولها الحسي[٣٦]. كما أن الليبرالية الجديدة ركزت على الإطار المؤسساتي، وأوكلت مهمة إيجاد مناخ الحرية وحمايته للدولة، بينما رفعت الليبرالية الكلاسيكية يد الدولة عن أي تدخل في تنظيم حرية الأفراد.

ويتضح مما سبق ارتكاز الليبرالية على الفردية والحرية.

---

(٣٤) انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١١٢).

(٣٥) ديفيد هارفي، الليبراليون الجدد ص(١٣).

(٣٦) انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١٣١).

٢- تاريخ ظهور المصطلح

تبين فيما سبق تاريخ الليبرالية الاقتصادية، أما الليبرالية السياسية والفكرية فقد بدأ يظهر في أعقاب عصر الإصلاح الديني موقف جديد إزاء السياسة والفلسفة في شمال أوروبا كرد فعل للحروب الدينية والخضوع لروما، يطلق على هذا الموقف الجديد تجاه مشكلات الميدان الاجتماعي والثقافي اسم الليبرالية، من سماتها: أنها بروتستانتية، فعلى كل فرد أن يسوي أموره مع الله بطريقته الخاصة، ومعارضة للتمييز، محورها التسامح -وفق اصطلاحهم -، وقد كانت ليبرالية القرن السابع عشر قوة للتحرر من كافة ضروب الطغيان(٣٧).

وكان الفيزيوقراطيين وهم أتباع مذهب اقتصادي سياسي نشأ في فرنسا في القرن الثامن عشر ينادون بحرية التجارة والصناعة(٣٨)، وهم من صاغ الشعار الليبرالي: "دعه يعمل دعه يمر"، إلا أنها كانت لفظا عاما يدل على التحرر، مع وجود بدايات عملية، ولم تتحول إلى توجه فكري مُنَظّر إلا في بداية القرن التاسع عشر عام ١٨١٠(٣٩)، يقول جون غراي: "إذا كان لليبرالية تاريخ فهو يبدأ في وقت ما في أوائل القرن التاسع عشر حين اكتسبت كلمة ليبرالي مدلولها المعاصر"(٤٠).

٣- أسس الليبرالية

تتمحور الليبرالية حول الحرية والفردية، والنفعية، والعقلانية، مع التسامح. وإن طغى عليها جانب الحرية الملتف حول الفرد.

---

(٣٧) انظر:حكمة الغرب ص(٢/٧٩-٨٠) بتصرف.

(٣٨) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ص(١٦٤).

(٣٩) انظر: موسوعة لالاند الفلسفية ص(٧٢٦)، والطيب بوعزة، في نقد الليبرالية ص(٢٢) يشير إلى أواخر الثامن عشر وبداية التاسع عشر.

(٤٠) جون غراي، ما بعد الليبرالية ص(٤٣٥)، عن موقف الليبرالية ص(٨٤).

ويرى راسل أن محور الموقف الليبرالي هو التسامح، ونبذ التمييز، واتجاه نحو الديمقراطية المبنية على حقوق التملك، والحد من سلطة الملوك، والارتياب في الحكومة لأنها تقف عقبة في وجه النمو الحر للتجارة، مع الإقرار بالحاجة للنظام والقانون الذي توفره الحكومة، وأن من السمات الرئيسية للاتجاه الليبرالي احترامه للفردية[٤١]، وتغلغلت هذه النزعة الفردية في الميدانين الاقتصادي والفلسفي، ففي الاقتصاد تمثلت بمبدأ دعه يعمل، الذي قام مذهب المنفعة في القرن التاسع عشر من أجل تبريره عقليا، وفي الفلسفة أدى إلى تأكيد الاهتمام بنظرية المعرفة. وكانت النزعة الفردية في أساسها نظرية عقلانية، وظلت الليبرالية -كما يقول راسل -على وجه العموم حركة بلا عقيدة جامدة[٤٢]، إذ عقيدتها حرية العقيدة.

وقد تأسست الليبرالية على مبدأ المنفعة الذي يدعم الحرية الفردية، ويبررها، وهو أن هدف الفرد في حريته تحقيق أكبر قدر من المنفعة الذاتية، التي تفسر بتحقيق أكبر قدر من اللذة. واعتمد جون ستيوارت ملJohn Stuart Mill (١٨٠٦ -١٨٧٣) في ليبراليته السياسية على مبدأ المنفعة عند جيرمي بنثام Jeremy Bentham(١٧٤٨ - ١٨٣٢)، حيث يقول: " والمذهب الذي يقبل المنفعة أساسا للأخلاق هو مبدأ السعادة العظمى، إذ يقول إن الأفعال تكون عادلة بمقدار ماتزيد من السعادة..والمقصود بالسعادة اللذة وغياب الألم"[٤٣]. وفي كتابه "عن الحرية" حدد جون ستيورات مل بوضوح المبدأ الأساسي الذي ترتكز عليه ليبرالية القرن التاسع عشر، وهي حرية الفرد، وحدود تدخل المجتمع وسلطته عليه، حيث يقول: "أن الغاية الوحيدة التي يكون ممارسة القوة فيها بشكل شرعي على أي عضو في المجتمع المتحضر، ضد إرادته،

(٤١) انظر: حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨١) بتصرف.

(٤٢) انظر: حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨٢) بتصرف.

(٤٣) النفعية ص(٢١).

هي منع إلحاق الأذى بالآخرين. إن مصلحته -أي عضو المجتمع -المادية أو المعنوية ليست ضمانا كافيا، إذ لا يمكن إجباره بشكل شرعي على أن يفعل أو يتحمل أو يتسامح لأنه من الأفضل بالنسبة له أن يفعل ذلك؛ لأن ذلك سيجعله أكثر سعادة، أو لأن فعل ذلك.. سيكون شيئا حكيما، أو حتى صحيحا. تلك هي أسباب جيدة للتجادل معه، أو النقاش معه، أو إقناعه أو التوسل إليه، ولكن ليس لإجباره أو إيقاعه بأي شر كان في قيامه بخلاف ذلك. ولأجل تبرير ذلك فإن السلوك الذي نرغب في منعه منه يجب أن يعتبر منتجا للشر أو سببا لضرر شخص آخر. إن الجزء الوحيد من سلوك أي فرد والذي يطيع فيه المجتمع، هو ذلك الذي يتعلق بالآخرين. أما في الجزء الذي يخصه هو فقط فإن استقلاله مطلق بحق. إن الفرد سيد على نفسه وعلى جسده وعقله."[٤٤]. ويلخص ذلك بأمرين:

أولا: أن الفرد ليس مسؤولا أمام المجتمع عن أفعاله طالما أنها لا تخص أي شخص سواه.

ثانيا: أن الفرد مسؤول عن الأفعال التي تلحق الضرر بمصالح الآخرين[٤٥].

٤- علاقة التنوير بالليبرالية

إن التنوير يعد كالأصل الذي ظهرت منه الليبرالية الحديثة كما قال بيتر غاي[٤٦]. وعصر الأنوار قد شهد ميلاد النظرية السياسية الليبرالية[٤٧]. فأصول الليبرالية متداخلة مع أصول التنوير، لأنها منبثقة منه، والعلاقة بين التنوير والليبرالية جد ظاهرة، فالتنوير حركة عقلانية حاربت السلطة الدينية، وهدفت لتحقيق الحرية والتقدم، لذا

(٤٤) عن الحرية ص(١٥).

(٤٥) عن الحرية ص(١١٣).

(٤٦) دوريندا أوترام، التنوير، ص(٢٨٨).

(٤٧) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤١).

فإن الليبرالية بمعنى التحررية هي أصل من أصول التنوير، "فالتنوير اختار الليبرالية"[٤٨]، ناقضين بذلك سيطرة الكنيسة، وعقودا من الطغيان والاستبداد.

ويحرص الفكر الليبرالي على إرجاع ميلاد الحرية بمدلولها الفردي إلى القرن الثامن عشر، أي إلى نظرية العقد الاجتماعي[٤٩]. إلا أن الحرية الليبرالية ركزت على تفصيلات الحرية الفردية الاقتصادية والفكرية ونظرياتها، وتخصصت لتصبح مذهبا خرج من مظلة التنوير.

لقد اهتم عصر الأنوار بالتحرر السياسي فأنجز بذلك الميلاد الفعلي للنظرية السياسية الليبرالية، إذ سيجري فيه تمثل الفرد بوصفه كائنا سياسيا، والتأسيس لفكرة الحرية الليبرالية بوصفها لفظا دالا على إطلاق كينونة الفرد من قيد الاستبداد، فحرية الفرد تمثلها الفكر السياسي الأنواري في القرن الثامن عشر بوصفها حقا نابعا من طبيعة الكائن الإنساني.إلا إن الليبرالية بدءا من القرن التاسع عشر وإلى اللحظة الراهنة ليست دعوة إلى حرية الفرد بوصفه كائنا إنسانيا، بل بوصفه مالكا اقتصاديا، فهي تتقصد تحرير القوة الاقتصادية، لتنتهي إلى التأسيس لاستبداد رأس المال، دونما حاجز قيمي أو مصلحي عام[٥٠].

وبالرغم من كون نظريات العقد الاجتماعي لفلاسفة التنوير قد دفعت إلى ليبرالية سياسية جاءت لاحقا، كما" تبنى مونتسكيو قضية الإصلاح القانوني، إذ اقترح في كتابه روح القوانين عددا من الإجراءات التي تهدف إلى جعل القانون أكثر تحررا"[٥١]، فقد كان تطبيق سياسة التنوير بكل مافيها من العقلانية العمومية، لايزال

---

(٤٨) جدل التنوير ص(١١٠).

(٤٩) انظر: نقد الليبرالية ص(١٣٩).

(٥٠) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤٣-١٤٤) (١٥٢) باختصار وتصرف.

(٥١) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٧)، وانظر: روح الشرائع(١/٧١-٧٧، ١٨٢) (٢/٢٣٨).

معتمدا في الغالب على البقاء المادي أو الإرادة البشرية للملك[٥٢]، حيث أراد الاقتصاديون الفيزوقراطيون "أن يفعلوا كل شيء عن طريق قرار صاحب السيادة"[٥٣]. فقد كان هناك موافقة على استبداد مستنير، وهذا يختلف عن مطالب الليبرالية الاقتصادية، والسياسية، التي تصر على التحرر من سلطة الدولة.

ولكون الليبرالية لا تمثل عقيدة محددة، بل هي حرية العقيدة، نجد بعض المفكرين يتخذ مواقف ليبرالية في نظرياتهم السياسية، مع اعتناقهم في مجالات أخرى أفكارا مختلفة جذريا عن الليبرالية[٥٤]. كما عمد جون ستيوارت مل -وهو من مؤسسي الليبرالية - إلى تخفيف عقلانية التنوير الصارخة بمشاعر الشك والاستجابات العاطفية، اللاعقلانية[٥٥].

٥- النقد الموجه لليبرالية

مما لاشك فيه أن الإسلام بتشريعاته السمحة قد كفل للناس حرية منضبطة بضوابط الشرع، حيث حرر البشرية من عبودية البشر، إلى السمو بعبادة خالق البشر، كما ضبط شتى التعاملات بين الناس بضوابط العدل، وحرم كل ما فيه ضرر على النفس، فمن الظلم والباطل مخالفة أوامر رب العالمين، ومساواة الدين الذي أمر به الله تعالى بغيره من الوثنيات والفلسفات. إن الليبرالية الغربية وقد قامت على التحرر من سلطة الدين وخلع عباءته قد وصمت نفسها بالكفر. وقد انتقد الغربيون أنفسهم الفلسفة الليبرالية، حيث يرى جيمس بيرنهام James Burnham(١٩٠٥ -١٩٨٧) أن

(٥٢) أوترام، التنوير، ص(٣٠٨)، غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٥).

(٥٣) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٥).

(٥٤) انظر:حكمة الغرب ص(٨٢/٢) بتصرف.

(٥٥) نقلا عن:برينتون، تشكيل العقل الحديث ص(٢٤٢).

الليبرالية هي أيديولوجية الانتحار الغربي، وهي أحد تعابير التناقض والانهيار الغربيين(٥٦).

لقد آمنوا بالحرية للجميع، لكن كان المخرج كما يرى برينتون هو الإيمان بالحرية دون الإباحة، وبينهما فارق أخلاقي(٥٧). كما أوضح بعضهم ضوابط الحرية المفترضة، حيث يقول الأمريكي بنيامين رش: "الحرية من دون فضيلة لن تكون نعمة بالنسبة إلينا"(٥٨). ويقول: "إن الأساس الوحيد لتربية مفيدة ونافعة في جمهورية؛ يجب أن يدخر في الدين، فمن دون الدين لا يمكن أن تكون هناك فضيلة، ومن دون الفضيلة لا يمكن أن تكون هناك حرية، والحرية هي هدف كل الحكومات الجمهورية وحياتها"(٥٩).

والليبرالية بوصفها مذهبا يطلق الفردانية من أي ضابط قيمي غير ضابط المنفعة المحددة كميا تتضاد مع أساس القيم الأخلاقية، لأنه ليس لها مرجعية نظرية ولا تطبيق مجتمعي يسند القيم الأخلاقية، حيث أن الرؤية الليبرالية للاجتماع تتأسس على منظور فرداني يتقصد الربح والمنفعة الشخصية، وليس المجتمعية التي هي بحاجة إلى الأساس الأخلاقي(٦٠).

إن الفلسفة الأخلاقية الليبرالية هي في جوهرها غير أخلاقية، بل ابتذلت الأخلاق، وحولتها لقيمة مادية، فاللذة تقاس بقيمة المال المصروف في تحصيلها وفقا لنفعية بنثام الموغلة في حسية مبدأ المنفعة واللذة، والأخلاق لم تعد قيما عليا والتزاما،

---

(٥٦) في كتابه انتحار الغرب، معنى الليبرالية وقدرها، نقلا انتحار الغرب لريتشارد، وكريس ص(٢٥).

(٥٧) انظر: تشكيل العقل الحديث ص(٢٣٥).

(٥٨) نقلا عن: غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١١).

(٥٩) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١٣).

(٦٠) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤٦).

بل مجرد قيم تجارية تقاس كميا بمبدأ المنفعة في مردودها الفردي[٦١].كما توسعت النزعة الفردية في القرن التاسع عشر حتى أفرزت فلسفة القوة التي تعلي من قدر الإرادة الذاتية للأقوى، وهي مضادة تماما لليبرالية[٦٢].

واستتبعت الليبرالية الجديدة الكثير من التدمير الخلاق، ليس فقط للأطر والقوى المؤسساتية، بل حتى لتقسيمات العمل والعلاقات الاجتماعية وطرق الحياة والتفكير والتكاثر والعادات. وحيث يحل العقد الآني والمؤقت محل المؤسسات الدائمة في السياقات المهنية والوجدانية والجنسية والثقافية والأسرية والدولية إضافة إلى الشؤون السياسية[٦٣]. وعارض رجال الاقتصاد الليبراليين نظام المعونة والصدقة للفقراء، ورأوا أنها عمل سيء في حق كل إنسان[٦٤]، رغم أنها مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، والرحمة.

ورغم أن مل عارض إجبار الآخرين على الحرية والمساواة[٦٥]. إلا أن الليبرالية تمادت إلى حد شن الحروب لإيصال الحرية للشعوب!! حتى قيل: "لابد من تحرير الإنسان من الليبرالية"[٦٦]. وهذا يوضح بجلاء فساد نبوءة فوكو ياما وقوله: إن" التاريخ يتخذ مسارا واضحا تحدده الرغبة المتعلقة والاعتراف العقلاني، وبالرغم من أن الديمقراطية الليبرالية هي في الحقيقة خير حل ممكن للمشكلات الإنسانية. ومن المحتمل...أن تصبح فكرة التاريخ العام والغائي للبشر -الذي يؤدي بنا إلى

(٦١) انظر: نقد الليبرالية ص(١٥١) بتصرف.

(٦٢) انظر:حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨٢) بتصرف.

(٦٣) ديفيد هارفي، الليبراليون الجدد ص(١٣-١٥).

(٦٤) تشكيل العقل الحديث، (١٩٠).

(٦٥) انظر: جون ستيورات مل، عن الحرية ص(١١١).

(٦٦) الطيب بو عزة، نقد الليبرالية ص(٩).

الديموقراطية الليبرالية - أكثر قبولا لدى الناس"[٦٧]. لقد كانت أطروحة غير صحيحة[٦٨].

وهناك من يحيل نجاح الغرب إلى ست فكر رئيسة؛ يجعل منها الليبرالية والفردية، مع أنه في الحقيقة يكشف طبع الحضارة الغربية وخاصياتها، ويوضح أسباب الانتشار الواسع لعدم الثقة في الغرب[٦٩]، لئن كان هناك نجاح مادي وتقني، فإن ضياع الدين القيم والأخلاق، وتفكك المجتمع، نسف قيمة هذا النجاح. ولذلك فمن مهددات الليبرالية تزايد انفصالها الكامل عن قاعدتها الأخلاقية، والالتزام الذي يزداد ضعفا نحو الجماعة، وفقدان العاطفة الحقيقة من ناحية الليبراليين. فمن أبرز ما يلاحظ هو الفراغ الأخلاقي المتزايد لليبرالية، وفقدانها المثل العليا السامية والخواء العاطفي في قلبها[٧٠].

وكلما توغل المرء في الليبرالية انكشفت له أكثر، حتى يغدو الإيمان بفضائل الليبرالية -بين الغربيين أنفسهم - أكثر صعوبة في الوقت الذي تنضج فيه المجتمعات الليبرالية. ويصرح بعض المفكرين الغربيين بأنه يوجد دافع قوي داخلي لليبرالية نحو تدمير الذات[٧١].

---

(٦٧) فرنسيس فوكو ياما، نهاية التاريخ، ص(٢٩٣).

(٦٨) انظر مزيد من التوضيح:انتحار الغرب ص(٢٠٧).

(٦٩) انظر:انتحار الغرب ص(١٥-١٦).

(٧٠) ينظر:انتحار الغرب ص(٢١٣-٢١٤) ملخصا.

(٧١) انتحار الغرب ص(٢١٥).

المسألة الثالثة: العلمانية وعلاقتها بالتنوير والليبرالية

١- تعريف العلمانية

العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة Secularism الإنجليزية، والترجمة الصحيحة للكلمة هي اللادينية، أو الدنيوية، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد(٧٢).

حيث نجد في معجم أكسفورد: " Secularism الاعتقاد بأن القوانين، والتعليم، وغيرها من الأنظمة، يجب أن تبنى على الحقائق والعلم بدلاً عن الدين.

١ -Secular : ليس مهتماً بالشؤون الروحية ولا الدينية لهذا العالم، التعليم اللاديني، الفن والموسيقى اللاديني، القوى اللادينية للدولة.

٢ -لا ينتمي إلى مجتمع العُبَّاد."(٧٣).

والعلمانية تعني: "أن تقوم الحياة في المجتمع والدولة على ضوء المعطيات التي يوفرها سير الحياة الطبيعية في العالم"(٧٤).أي بعيدا عن الدين. ويختصر مارسيل غوشيه Marcel Gauchet العلمانية بالخروج عن الدين(٧٥).

ويرى غي هارشير Guy Harscher أن العلمانية تحيل إلى مفهوم سياسي: فالدولة العلمانية هي التي لاتمنح امتيازا لأي ملة، وبشكل أعم لأي تصور محدد للحياة الصالحة، في الوقت الذي تكفل فيه حرية التعبير عن كل منهما ضمن حدود معينة(٧٦)، ويعرف العلمانية في معناها الواسع بأنها الأنظمة التي تحترم حرية الضمير،

---

(٧٢) انظر:سفر الحوالي، العلمانية ص٢١.

(٧٣) Oxford Advanced Learner's Dic. Of current English: p.1062

(٧٤) محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، ص(١٢٦).

(٧٥) انظر: مارسيه غوشيه، الدين في الديمقراطية، مواضع كثيرة من الكتاب منها ص(٢٣، ٤٩).

(٧٦) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٦).

أما في معناها الضيق فهي تأكيد الحرية الدينية، ومبدأ فصل الدين عن الدولة[٧٧]. فهي لادينية الدولة بحيث لا تتبنى الدولة أي دين، وتكفل للجميع الحرية الدينية. ووفقا لغي هارشير هناك مدلولان للعلمانية:

الأول: يقتضي فصلا جذريا للدولة عن المذاهب الدينية؛ فهي فصلية وأكثر تصلبا.

والثاني: أو العلمانية بالمعنى الواسع للتعبير، وهو الذي تعترف به -وتطبقه عموما -الدول الديموقراطية المعاصرة، والذي يجمع بين مبدأ حرية الضمير ومبدأ عدم التمييز لأسباب دينية، فالدولة ملك للشعب كله، لا لأتباع تصور ما للحياة الصالحة، دينيا كان أم دنيويا. فهي علمانية منفتحة أكثر مرونة وحيادية وأكثر شيوعا[٧٨].

إلا أن المدلول الأول لطبيعة توجه الدولة العلمانية ليس فقط معارضا لتدخل الدين في الحياة العامة، بل معاد للدين كذلك[٧٩].

ومن جهة أخرى يصنفها الدكتور المسيري إلى نوعين:

الأولى: علمانية جزئية وهي فصل الدين عن الدولة. وهذا أكثر التعريفات شيوعا للعلمانية في العالم سواء في الشرق أو الغرب. وهي تحصر عمليات العلمنة في المجال السياسي وربما الاقتصادي أيضا، وفي بعض المجالات في رقعة الحياة العامة، وتستبعد شتى النشاطات الإنسانية الأخرى أو تلزم الصمت بخصوصها. لذا لا يتفرع عنها منظومات معرفية أو أخلاقية. وهي مرتبطة بالمراحل الأولى لتطور العلمانية.

---

(٧٧) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٥).

(٧٨) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(١٠٧-١٠٩).

(٧٩) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٨٠) بتصرف.

والثانية: علمانية شاملة، وهي فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، لا عن الدولة فحسب، وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص. وهي رؤية شاملة للعالم ذات بعد معرفي، وهي رؤية عقلانية مادية، تدور في إطار المرجعية الكامنة، والواحدية المادية التي ترى أن مركز الكون كامن فيه، غير مفارق أو متجاوز له[٨٠].

وبمرور الزمن تراجعت العلمانية الجزئية وهمشت، إذ تصاعدت معدلات العلمنة بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعية كاسحة، وتحولا بنيويا عميقا يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة[٨١]. بينما يؤكد هارشير على أن طابع علمانية سنوات ١٨٨٠ -١٩١٠ المعادي للدين لم يكن في النهاية سوى طابع ظرفي، وأنه يجب التمييز بين الطارئ والأساسي[٨٢]. إلا أن هذا يرده علمانية فرنسا المتطرفة إلى اليوم. وتطرف العلمانية الأتاتوركية كذلك. حيث لم تفصل الدولة عن تصورات الحياة الصالحة بقدر ما أمست ناطقة باسم أخلاق وقيم، وبصورة خاصة باسم مثل عليا عقلانية ومضادة للدين[٨٣].

٢- تاريخ ظهور المصطلح

كان لفظ العلمانية يستخدم -كما هو معناه اللغوي - للدلالة على اللاديني، أو ما لا علاقة له بالدين، في مقابل الشيء الديني، فالمحاكم العلمانية تقابل المحاكم الدينية، والقضاء العلماني مقابل القضاء الكنسي. يقول مونتسكيو وهو يتحدث عن المبارزة القضائية، وبينات النفي لدى الإمبراطورية الرومانية وغيرها: "وقد أعجبت

(٨٠) انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/١٦-١٧، ٢٢٠) بتصرف.

(٨١) انظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٠) بتصرف.

(٨٢) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٨٣) بتصرف.

(٨٣) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٢٧) بتصرف.

المحاكم العلمانية بكل منهما، وقد نبذت المحاكم الكنسية كلا منهما"[٨٤]، ويقول في النفقات: "قديما كان لا يحكم بالنفقات في المحاكم العلمانية"[٨٥]، ويقول: "حدود القضاء الكنسي والعلماني معروفة قليلا في تلك الأزمنة...القضاء العلماني... العلمانيون... المحاكم العلمانية.. مد القضاء الكنسي والقضاء العلماني وجزرهما"[٨٦]. ويقول إدوارد جيبون:" والحق أن تقسيم الناس إلى روحانيين وعلمانيين كان أمرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة"[٨٧].

وفي الولايات المتحدة نجد التطبيق العملي للعلمانية مع عدم معرفتها بهذا المصطلح، فقد علمنت الدولة الاتحادية الفيدرالية بجعلها مستقلة عن العقائد الدينية قبل العديد من الدول الأوروبية، ومنها فرنسا نفسها.إذ كفل التعديل الأول الذي أجري عل الدستور الأمريكي عام١٧٩١ الفصل بين الكنائس والدولة الاتحادية، وأكد أن لا وجود لأي دين رسمي مقرر أي ذي امتياز سياسي، كما كفل الحرية الدينية المطلقة[٨٨].أما في فرنسا فنجد علمنة الأحوال المدنية قررها دستور ١٧٩١، وكانت صيغة الفصل الأولي بين الدولة والكنيسة في دستور السنة الثالثة عام ١٧٩٥ والتي طرأ عليها تعديلات فيما بعد[٨٩]. إلى أن توسعت دلالة الكلمة دون أن تصل إلى

---

(٨٤) مونتسكيو، روح الشرائع (٣٠٩/٢).

(٨٥) روح الشرائع (٣٤٥/٢).

(٨٦) روح الشرائع(٣٥٦/٢-٣٥٧).

(٨٧) إدوارد جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، (٤١٨/١).

(٨٨) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(٥-٦)، وكثيرا ما يقال:إن الدولة في الولايات المتحدة علمانية، والمجتمع متدين، حيث يمنح العرف الأمريكي الدين حضورا مرئيا لا يحظى بمثله في أوروبا، وإن كان هذا الدين رمزي بحت ويصلح لجميع الديانات السماوية.نفس المصدر ص(١١١-١١٢).

(٨٩) انظر: غي هارشير، العلمانية، ص(١٧)، مارسيه غوشيه، الدين في الديمقراطية، ص(٤٩).

الشمول الكامل على يد جون هوليوكJohn Holyooke (١٨١٧ -١٩٠٦) فهو أول من سك المصطلح بمعناه الحديث[٩٠].

٣- علاقة العلمانية بالتنوير

يرى الدكتور المسيري:" أن ثمة ترادف بين كلمتي استنارة وعلمانية"[٩١]. حيث"أكد المستنيرون على ضرورة فصل الدين عن الدولة، وعن رقعة الحياة العامة التي يمارس فيها المواطن حقوقه وحرياته والتي يحتكم فيها إلى عقله وحسب"[٩٢]. كما أن التنوير حركة لادينية وكذلك العلمانية لادينية. وكل منهما كان ناقدا للدين، ويرى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل بدل الدين. وتفترق العلمانية المتطرفة عن التنوير، حيث يزعم التنوير مع نقده للدين منح الشعب حرية المعتقد، بينما تحارب العلمانية وتحظر الرموز الدينية. إلا أن أمريكا رغم علمانيتها "وعلى الرغم من أن الدين ليس له وجود في الدستور، فإنه راسخ بقوة في المجتمع، الذي هو نفسه البنية الأساسية للحكومة. وكتب توكفيل يقول: إن فلاسفة فرنسا اعتقدوا"أن الحماسة الدينية.. تخمد عندما تزيد الحرية، والتنوير"، واستهجنت أمريكا هذه النظرية وكان الشيء الأول الذي أذهله عند وصوله إلى الولايات المتحدة هو طبيعة البلد الدينية، يقول:"لقد رأيت بيننا - أي بين الفرنسيين - روح الدين وروح الحرية يتحركان باستمرار في الأغلب في اتجاهات متعارضة. أما هنا فقد وجدتهما متحدين كل منهما مع الآخر بصورة وثيقة: فهما يسودان معا على التربية نفسها"[٩٣]. بمعنى أن الحرية الدينية في أمريكا هي الجوهر وليس عداء الدين كما هو أصل التنوير الفرنسي، وذلك

(٩٠) انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٥٤).

(٩١) فكر حركة الاستنارة ص(٤).

(٩٢) فكر حركة الاستنارة ص(٤٠).

(٩٣) توكفيل نقلا عن:غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١٤).

راجع إلى نمط العلمانية في أمريكا فهي ليست علمانية متطرفة كما في فرنسا. إلا أن التنوير بأصوله يشمل العلمانية، فالعلمانية أخص من التنوير. حيث إن "فكر حركة الاستنارة هو الأساس الفلسفي الذي تنطلق منه العلمانية الشاملة"(٩٤). فالتنوير بعزله للكنيسة كرس للتطبيق العملي للعلمانية. وقد قام التنوير بالدفاع عن العقلانية ومبادئها كنظام تشريعي للأخلاق والمعرفة بدلا من الدين. ومن هنا نجد أن عصر التنوير هو بداية ظهور الأفكار المتعلقة بتطبيق العلمانية.كما أن العلمانية باتت نظاما سياسيا، بينما علمانية الفكر تمثل التنوير. واهتم التنوير بالدين الطبيعي والتنمية المجتمعية، بينما لم تهتم العلمانية بذلك.

والخلاصة أن العلمانية بجميع صورها تعد من نتاج التنوير، وإن حصل لها بعض التخصص.

٤- علاقة العلمانية بالحداثة والليبرالية

يقيم مارسيل غوشيه علاقة ترادف بين التحديث والعلمنة وهي الخروج من الدين، وهذه القطيعة هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلمنة، ويفسر الخروج من الدين بأنه لايعني التخلي عن المعتقد الديني، وإنما الخروج من عالم يكون الدين فيه بحد ذاته منظما بنيويا، يوجه الشكل السياسي للمجتمعات ويعين البنية الاقتصادية للرباط الاجتماعي(٩٥).

والعلمانية تحتوي على مبادئ ليبرالية، إلا أن شيئا من التناقض بين العلمانية المتطرفة والليبرالية، فمنهج العلمانية في الفصل بين الدين والدولة "لا يعبر على الأرجح تماما عن عملية التحرر السياسي المطبقة في المجتمعات الديمقراطية المعاصرة"(٩٦).

---

(٩٤) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٩٠).

(٩٥) انظر: مارسيل غوشيه، الديمقراطية والدين، ص(٢٧)، وسيأتي مزيد توضيح عند بحث الحداثة.

(٩٦) غي هارشير، العلمانية، ص(٨٧).

حيث التأويل الليبرالي البحت للعلمانية يكتفي بفكرة الدولة الحكم، التي تضمن الحريات الكبرى: حرية الضمير والعبادة والتعليم والاجتماع، بحيث تترك كليا لأفراد المجتمع المدني التصرف مع اختزال دورها إلى مجرد دركي[٩٧]، فالليبرالية تفترض ضرورة العدالة مع جميع المواطنين بغض النظر عن انتمائهم الديني، متفقين بذلك مع العلمانية المعتدلة من حيث موقف الدولة المحايد من الدين، وهو مغاير للواقع المتطرف الذي تنتهجه العلمانية السائدة. وبينما يكمن جوهر العلمانية في عملية الفصل بين الدين وشؤون الحياة، فإن جوهر الليبرالية هو الحرية الفردية.

٥- نقد العلمانية والتنوير

إن تنكر التنوير الأوروبي والعلمانية للدين ظاهر، فهي كفر بالدين، وإلغاء وتهميش وعزل له. وهذا يقضي بمجتمعات تعيش في خواء روحي وأخلاقي، وهو حقيقة دمار المجتمعات، يقول جيفرسون: "لم توجد أمة أو حكومة على الإطلاق من دون دين ولا يمكن أن توجد"[٩٨]. ويقول واشنطن محذرا مواطنيه أن التنوير ليس بديلا من الدين، وأن لا يطلقوا العنان لافتراض أن الأخلاق يمكن تدعيمها والمحافظة عليها من دون الدين، ومهما يتم التسليم بتأثير التربية الرفيعة والمهذبة في عقول بنية معينة، فإن العقل والتجربة يمنعاننا من أن نتوقع أن الأخلاق الوطنية يمكن أن تهيمن عند استبعاد المبدأ الديني. ويقول جون آدمز: "إن دستورنا لم يوضع إلا من أجل شعب أخلاقي ومتدين"[٩٩].

---

(٩٧) انظر: غي هارشير، العلمانية ص(٨٨).

(٩٨) نقلا عن: الطرق إلى الحداثة ص(٢١٧).

(٩٩) نقلا عن: الطرق إلى الحداثة ص(٢١٩).

وانزعج الفلاسفة في فرنسا من بعض نتائج ذلك الفصل، بسبب إلغاء المؤسسات الخيرية والمدارس التي تديرها الكنيسة والتي لم يوجد لها بديل[١٠٠]. واعترفوا بأفضال الإيمان الديني على الأخلاق، والأسرة، والمجتمع، وقد وصف أحد المؤرخين إيمان الفلاسفة الفرنسيين بالفائدة الاجتماعية للدين بأنه"مفارقة وتناقض"[١٠١].

وامتدت آثار العلمانية والتنوير على كافة مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية. لتترك الإنسان مشتتا لاهثا لا يدري أين مصيره، ولا ماضيه، متنكرا لمبدأ وجوده، فلا عجب أن يظهر في هذه البيئة العديد من المذاهب التي ارتدت على نفسها ونقضت كل شيء، نقضت الأخلاق والقيم، بل والعقل الذي عبده أهل التنوير والحداثة والعلمانية، وأعلن بعض رؤوسهم[١٠٢] الحرب على المجتمع ووصم أهل العلم والمعرفة بأقذع أنواع السباب ووصمتهم بالكذب والدجل والانحطاط، وظهرت الأفكار الوجودية، والعدمية، وغيرها من المذاهب التي تحكي ضياع المجتمع المتغطرس الذي نزع رداء الدين، وغلا في عقله وفكره، ونظر من علياءه ليرى نفسه متكشفة في ضعفها، وجهلها، فيزداد حيرة وشكا. لذا فإن الإنسان مهما جرب من عقائد وأفكار فإنه مضطر في نهاية المطاف للعودة إلى الدين. وهذه الحالة أصبحت ملحة أكثر في الغرب حاليا. وكما قال أندريه مالرو André Malraux(١٩٠١ -١٩٧٦): إن القرن الحادي والعشرين سوف يكون روحيا أو دينيا أو أنه لن يكون[١٠٣].

---

(١٠٠) انظر: الطرق إلى الحداثة ص(١٩١) بتصرف.

(١٠١) انظر: الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٥).

(١٠٢) كما فعل نيتشه، انظر كتابه هذا هو الإنسان.

(١٠٣) انظر: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٦).

المسألة الرابعة: الحداثة وعلاقتها بالتنوير والعلمانية

أحدثت الدراسة الغربية لتاريخ التراث والفكر اليوناني القائم على الأسطورة، وتاريخ التراث المسيحي بما فيه من معلومات، وتحديدات تاريخية مناقضة للعلم ولما ثبت في تاريخ حضارات مصر والصين، ردة فعل عند بعض المفكرين الغربيين أدت إلى فقدان الثقة في الماضي، وتجاهل التاريخ، والإيمان بالحاضر، والنظر للمستقبل."لقد حدث انهيار كبير، ولم يعد يرى بعده أي شيء مؤكد إلا الحاضر، وكل ما هو سراب توجب ارتداده نحو المستقبل"[١٠٤].

١- تعريف الحداثة

ينقل جياني فاتيمو Gianni Vattimo[١٠٥] تعريفا لمنظرين للحداثة فيقول: "الحداثة هي تلك الحقبة حيث يصير "الوجود حديثا" قيمة، أو حتى القيمة الأساسية التي تحال إليها كل القيم"[١٠٦]. ويرى أن هذا التعريف يلتقي مع تعريف آخر للحداثة "بوصفها عملية علمنة وتزمين -شأنها شأن كلمة حديث -، هي في الوقت نفسه الكلمة التي تصف ما حدث في عصر ما، وتحدد سمته بهذا الشكل، والقيمة التي تحكم الوعي وتوجهه في ذاك العصر، بشكل خاص بوصفها إيمانا بالتقدم(إما معا: إيمان معلمن وإيمان بالعلمنة)" [١٠٧]. حيث"يتماهى الإيمان بالتقدم، المفهوم بوصفه إيمانا بالسيرورة التاريخية، والتي تتجرد أكثر فأكثر من المرجعيات الدينية وما وراء التاريخية، يتماهى بكل بساطة مع الإيمان بقيمة الجديد"[١٠٨].

---

(١٠٤) بول هازار، أزمة الوعي الأوروبي ص(٤٦).

(١٠٥) جياني فاتيمو، فيلسوف إيطالي، ما بعد حداثي، ولد عام ١٩٣٦م.

(١٠٦) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤).

(١٠٧) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤). وينتقد فاتيمو هذا التعريف ص(١١٨).

(١٠٨) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤).

ويصف ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ -١٩٢٠)الحداثة الثقافية: "بأنها فصل العقل الجوهري الذي يعبر عنه الدين وما وراء الطبيعة إلى ثلاثة مجالات مستقلة، وهي العلم والأخلاق والفن"[١٠٩]. ويرى بيتر بروكر Peter Brooker أنه قد تشتت شمل هذه الرؤية في القرن العشرين، لأنه أدى إلى استقلالية الأفرع التي يتعامل معها المتخصصون، وفصلها عن تفسيرات التواصل الفكري اليومي، وأصبحت المشكلة: هل علينا أن نتشبث بأهداف التنوير مهما كانت ضعيفة؟ أم هل ينبغي أن نعلن أن مشروع الحداثة يعد قضية خاسرة في مجمله؟[١١٠].

ويعرف جيف فاونتين Jeff Fountain الحداثة بأنها: "سلسة من التحولات في المجتمع المعاصر قائمة على أساس التمدن والتصنيع، والعلم والتكنولوجيا والتي أصبحت أساسا لفكرة الشك الديني، وعدم الاعتقاد بصحة الكتب المقدسة"[١١١].

وعليه في المقابل من المستحيل أن نطلق كلمة حديث على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقا لوحي إلهي أو تنظيم قومي. وليست الحداثة مجرد تغيير أو تتابع أحداث: إنها انتشار لمنتجات النشاط العقلي، العلمية التكنولوجية الإدارية. والحداثة تستبعد أي غائية، إن العلمنة وإزالة سحر الأوهام اللتان يتحدث عنهما فيبر واللتان تحددان الحداثة باعتبارها عقلنة، تبرزان القطيعة الضرورية مع الغائية الدينية التي تنادي دوما بنهاية للتاريخ. حيث تحل الحداثة فكرة "العلم" محل "الله" في قلب المجتمع، وتقصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة. وترى أنه ينبغي حماية النشاط العقلي من الدعايات السياسية أو من الاعقادات الدينية[١١٢].

---

(١٠٩) نقلا عن بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٨).

(١١٠) بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٩).

(١١١) جيف فونتين، ما بعد الحداثة، نقلا عن باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٤٧).

(١١٢) انظر: آلان تورين، نقد الحداثة، ص(٢٩)، القول الفلسفي للحداثة ص(٧-٨).

أما العقلانية في الحداثة؛ فيرى هابرماس أن فك السحر عن العالم -حسب وصفهم للحداثة -الذي تلاه تفكك التصورات الدينية للعالم تفككا أوجد في أوروبا ثقافة لا دينية هو عملية عقلانية[١١٣].كما يُعرّف المفهوم الكلاسيكي والفلسفي للحداثة بأنه انتصار للعقل وتحرر وثورة[١١٤]. وتوقف بودليرBaudelaire (١٨٢١ -١٨٦٧) على خصائص أربع للحداثة الفنية، وهي: غير المنتهي أو غير الناجز، والمتبعثر أو المتقطع، والتفاهة أو فقدان المعنى، وأخيرا الاستقلالية الذاتية للعمل الفني[١١٥].

ترتكز الحداثة إذن على فكرة العقلانية، والتقدم، والعلمنة، والقطيعة مع التراث والدين، وهي لاتختص بمنحى معين كالفن والأدب مثلا، بل تشمل جميع مناحي الحياة. ويقترح آلان تورين إعادة تعريف الحداثة كعلاقة يسودها التوتر بين العقل والذات وبين العقلنة وتحقيق الذات، بين روح النهضة والإصلاح، بين العلم والحرية. وهو موقف بعيد عن حداثية اليوم التي دخلت في مرحلة الانهيار، وعن ما بعد الحداثية التي يجول شبحها في كل مكان[١١٦]. وهو محاولة إصلاحية من تورين لإخراج الحداثة من مأزقها، وإعادة ضبطها، كما فعل هابرماس في مقاله "الحداثة مشروع لم يكتمل".

٢- تاريخ ظهور المصطلح، وأبرز رموز الحداثة

لفظ حديثModern: مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر في المساجلات الفلسفية والدينية[١١٧]. ويرى هانز كونغ Hans Kong[١١٨] أن كلمة حديث قديمة[١١٩] ولكنها لم

(١١٣) انظر: القول الفلسفي للحداثة ص(٥).

(١١٤) نقد الحداثة.ص(٥٢).

(١١٥) ما بعد الحداثة والتنويرص(٤٣).

(١١٦) انظر: نقد الحداثة.ص(٢٣).

(١١٧) موسوعة لالاند ص(٨٢٢).

تستخدم للدلالة الإيجابية على الحساسية الجديدة إلا في بداية عصر التنوير أو حتى قبله بقليل[١٢٠].

أما لفظ الحداثة Modernity فلم يأخذ دلالته إلا عام ١٨٤٩ تحديدا، كما ارتبطت بأعمال شارل بودلير، وبالذات نصه الذي كتبه عام ١٨٥٩[١٢١].

ويعتبر الحداثيون هيجل Hegel (١٧٧٠ -١٨٣١) الفيلسوف الأول الذي نما بكل وضوح مفهوما للحداثة[١٢٢]، فهو أول من وضع في مسألة فلسفية قطيعة الحداثة مع الإيحاءات المعيارية للماضي الغريب عنها[١٢٣].ويعتبر يورجن هابرماس الممثل الأبرز لتيار الحداثة في الفلسفة المعاصرة، وكتابه القول الفلسفي للحداثة يعد بيانا حداثيا متميزا، دعا فيه إلى ضرورة إعادة تفكير الحداثة على أسس جديدة، خاصة بعد النقد الذي طالها [١٢٤].وقد أفل نجم الحداثة في سبعينات القرن العشرين، حيث ظهرت فلسفة جديدة في معاداة الحداثة[١٢٥].

---

(١١٨) عالم دين سويسري ولد عام ١٩٢٨، له كتابات في مدح الإسلام ونبي الإسلام، ومنها كتابه "المسيحية والأديان الأخرى"، ويرى البعض-كالدكتور راغب السرجاني في كتابه عظماء أسلموا- أنه اعتنق الإسلام.

(١١٩) يرجعها البعض إلى القرن الخامس الميلادي انظر:الحداثة و مابعد الحداثة، ص(١٩٩)، ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٤١).

(١٢٠) انظر:مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٠).

(١٢١) انظر: القول الفلسفي للحداثة ص(١٧-١٨)، ما بعد الحداثة والتنوير ص(٤١-٤٢)، الحداثة وما بعد الحداثة، ص(٢٠١-٢٠٠)، مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤١)، والنص المذكور لبودلير هو مقالة له بعنوان" رسام الحياة الحديثة"نشره في جريدة الفيجارو الباريسية.

(١٢٢) انظر: القول الفلسفي للحداثة.ص(١٢).

(١٢٣) القول الفلسفي للحداثة ص(٢٩).

(١٢٤) انظر:ما بعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

(١٢٥) الحداثة وما بعد الحداثة، ص(٢٠٣)، نقد الحداثة ص(٢٠٦) (٢٣٨).

حيث تم تعقب أفكار الحداثيين، والنظر في منطقها والرد عليها، أي المواجهة الفكرية لها[١٢٦]. وقد ناقش هابرماس كل من نيتشه وفوكو ودريدا وهيدجر وهوركهايمر وأدورنو، مدافعا عن الحداثة، منتقدا موقفهم. وهاجم هابرماس في مقاله عام ١٩٨٠ والذي بعنوان: "الحداثة مشروع لم يكتمل" دعاة مابعد الحداثة الذين يريدون القضاء على إنجازات الحداثة -من وجهة نظره -، و"اعترف هابرماس بأن الحداثة وصلت إلى مأزق أو جدار مسدود، واخترع مصطلحا ناجحا جدا للتعبير عن هذا المأزق هو: الظلمة الجديدة أو العتمة الجديدة"[١٢٧]. وقدم بديلا في العقل التواصلي، يجمع فيه بين هيجل وكانط، عكس ما قامت به ما بعد الحداثة من رفض لهيجل وارتباط بجماليات كانط[١٢٨]. ويميل آلان تورين إلى رأي هابرماس في إمكانية إصلاح الحداثة. أما الما بعد حداثيين فإنهم يؤكدون أن تفكك الحداثة لا رجعة فيه[١٢٩].

٣- علاقة الحداثة بالعلمانية

سبق أن بينت مابين العلمانية والحداثة من ترادف، وأنها تتفق على الخروج من الدين، وهذه القطيعة هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلمنة، ويفسر الخروج من الدين بأنه لايعني التخلي عن المعتقد الديني، وإنما الخروج من عالم يكون الدين فيه بحد ذاته منظما بنيويا، يوجه الشكل السياسي للمجتمعات ويعين البنية الاقتصادية للرباط الاجتماعي[١٣٠]، بمعنى إقصاء الدين عن إدارة شؤون الحياة. لذا فإن صياغة فكر سياسي واجتماعي جديد هو التكملة التي لا غنى عنها للفكرة الكلاسيكية عن

---

(١٢٦) الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٥).

(١٢٧) مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٣).

(١٢٨) انظر:مابعد الحداثة والتنوير ص(٥٢).

(١٢٩) انظر: آلان تورين، نقد الحداثة.ص(٢٣٨).

(١٣٠) انظر: مارسيل غوشيه، الديمقراطية والدين، ص(٢٧).

الحداثة في ارتباطها بالعلمنة، حيث يحل المجتمع محل الله كأساس للحكم الأخلاقي، ويصبح مبدءا للتفسير وتقييم السلوك[١٣١]. يقول هابرماس: "يعتبر كل دين في الأصل تصورا عن العالم أو فهما عقائديا يطالب بحقه في السلطة لكي يبني شكلا من أشكال الحياة في كليته. لكن على الدين أن يستغني عن هذا الحق، والحق في احتكار التأويل وتنظيم الحياة الشامل، نظرا لشروط علمانية العلم، ومحايدة سلطة الدولة، والحرية الدينية الشاملة"[١٣٢].

فالصلة بينهما بالغة الوضوح من وجوه:

الأول: تتميز الحداثة بوصفها حقبة العزوف عن رؤية قدسية للوجود وتأكيد القيم الدنيوية، أي بوصفها حقبة العلمنة.

الثاني: بكون المفهوم المركزي للعلمنة الإيمان بالتقدم، وإلغاء المرجعية المتعالية.

الثالث: أن هذه العلمنة المتطرفة لتلك الرؤية للتاريخ بوصفه عناية، تكافئ ببساطة تأكيد الجديد بوصفه قيمة، وحتى بوصفه القيمة الأساسية[١٣٣].

٤- علاقة الحداثة بالتنوير

يرى فوكو أن نص كانط[١٣٤] يجذر الحداثة في التنوير، بل يجعله نقطة انطلاق الحداثة. حيث يقول: "دشن النقد الكانطي عتبة حداثتنا"[١٣٥]. ويتفق معه هابرماس، لكنه ينتقده في جمعه بين الدعوة للتنوير ونقده الجذري للحداثة[١٣٦]. وهذا النص يربط

---

(١٣١) انظر: آلان تورين، نقد الحداثة، ، ص(٣٧).

(١٣٢) هابرماس، جدلية العلمنة.ص(٦٠).

(١٣٣) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٥).

(١٣٤) سبق ذكر نص كانط في تعريف التنوير، انظر:جواب على السؤال: ما هي الأنوار، إيمانويل كانط ص(٨٥).

(١٣٥) ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ص(٢٠٨)، وانظر: ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٢٤٨).

(١٣٦) انظر: بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٢٤٨).

الحداثة بالتنوير لأنه يدعو لنزع جميع السلطات، والتحرر في الاحتكام للعقل وحده، حيث العقلانية والحرية من أصول التنوير والحداثة. وكتبت غيرترود هيملفارب "الطرق إلى الحداثة" وكان كتابها عن التنوير الفرنسي والإنجليزي والأمريكي، موضحة أنه كان طريقا نتيجته الحداثة.

وتتفق الحداثة مع التنوير في خلع سلطة الدين، ونبذ الغيبيات، والخضوع للقوانين الطبيعية التي يرونها هي الحرية الحقة، "يقول أنصار الحداثة: أنه لا المجتمع ولا التاريخ ولا الحياة الفردية تخضع لإرادة كائن أسمى يجب الإذعان له، أو يمكن التأثير عليه بواسطة السحر. الفرد لا يخضع إلا لقوانين طبيعية، هذه هي فلسفة التنوير التي ينتمي إليها جان جاك روسو"(١٣٧).

ومشروع الحداثة قد تم رسمه في القرن الثامن عشر على يد فلاسفة التنوير، وتوقف على مجهودات هؤلاء الفلاسفة(١٣٨). وكان" ما يعنيهم وهم على قمة فلسفة التنوير أن يوحدوا بين العقل والإرادة، وأن يدافعوا عن حرية هي خضوع للنظام الطبيعي أكثر منها تمردا على النظام الاجتماعي. هذا هو المبدأ المركزي لهذا المفهوم الاستناري، فلم يكن يسمى بعد بالحداثة، ولكن ينبغي أن نطلق عليها هذا الاسم بأثر رجعي؛ فالحداثة ليست فلسفة للتقدم..يمكننا أن نلمح فيها قطيعة مع التراث وفكرا للعلمنة، ولتدمير العالم المقدس"(١٣٩). فقد ساهم عصر التنوير في بلورة قيم الحداثة وخاصة الإيمان بالعقل، والعلم والنقد والحرية والتقدم(١٤٠).

---

(١٣٧) آلان تورين، نقد الحداثة، ص(٣٢).

(١٣٨) الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٨-٢٠٩)، آلان تورين، نقد الحداثة، ص(٤٠).

(١٣٩) نقد الحداثة، ص(٤٦).

(١٤٠) مابعد الحداثة والتنوير، ص(٤٤).

٥- نقد الحداثة

الحداثة في حقيقتها في جميع مساراتها كما سبق قطيعة مع الدين، وهي تتفق في ذلك مع العلمانية والتنوير. هذا وإن النقد الموجه للحداثة ليس فقط من المنظور الإسلامي، بل من المنظور الغربي أيضا، وكان نقدهم مرتكزا على أمور:

١ -الخواء الروحي، والقضاء على الدين، فالحداثة بتركيزها على العلمنة والعقلانية، أبعدت الدين عن الحياة، وجعلته شيئا هامشيا يمكن الاستغناء عنه، بل حاربت الدين وجعلته من الماضي الذي ينبغي نسيانه. يقول هابرماس: "تفهم نظريات ما بعد الحداثة الأزمات بطريقة عقلية نقدية ليس كنتيجة استنفاد اختياري للمقدرة العقلية الموجودة في الحداثة الغربية، لكن كنتيجة منطقية لبرنامج العقلنة المجتمعية والروحية التي تحمل هدمها في ذاتها..وهكذا يظهر اليوم من جديد صدى نظرية تؤكد بأن الدين وحده هو الذي يمكنه أن يساعد الحداثة المتكسرة بتأسيسها على أساس متعال، من أجل إخراجها من المأزق الذي توجد فيه"[١٤١]. كما يرى دانييل بيل: "أن الصحوة الدينية هي الحل الوحيد، فالإيمان الديني الذي يتقيد بالإيمان بالتراث يمكن أن يمد الأفراد بهويات محددة واضحة وأمان وجودي"[١٤٢].

٢ -العقلانية المفرطة. فباعترافهم إن"سير التاريخ قد أظهر مع الوقت أن العقل حين حدد لنفسه مشروعا كهذا كان قد بالغ في تقديره لنفسه، وجد العقل نفسه جراء ذلك منهكا ومنقادا للشك بذاته"[١٤٣]، نظرا للنتائج السيئة التي قادت إليها العقلانية المغلقة.

---

(١٤١) هابرماس، جدلية العلمنة ص(٥٤-٥٥).

(١٤٢) التناقضات الحضارية للرأسمالية، نقلا عن بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٥).

(١٤٣) هابرماس،مستقبل الطبيعة الإنسانية ص(١٣٦).

٣ -الفردانية. حيث بات مدار الأخلاق على المصلحة الفردية [١٤٤]. وعرفت المنفعة تعريفا ماديا بحتا يرجع إلى اللذة الخاصة بالفرد، كما أورثت الأنانية والتمحور على الذات والانغلاق عليها.

٤ -الأنظمة الشمولية والكلية. فعلى سبيل المثال يرى راسل أن الفكر الهيجلي -وهيجل يعد من رواد الحداثة - قد أسهم بظهور الأنظمة الشمولية[١٤٥].كما أسهم من قبله روسو في نظرية العقد الاجتماعي فأكمل عناصر النظام الشمولي بحظره التنظيمات الخاصة، سياسية واقتصادية، وبعدم خضوع الحاكم لسلطة فوقه[١٤٦]. كما أن العقل الأداتي الذي أعطي الأولوية شكل تهديدا للحريات الفردية والجماعية، وأفرز أنظمة مستبدة قادت إلى الحروب العالمية.

٥ -التسيب الأخلاقي، وتفكك المجتمع، حيث أكد المفهوم الغربي للحداثة أن التحديث يفرض تحطيم العلاقات الاجتماعية والمشاعر والعادات والاعتقادات المسماة بالتقليدية[١٤٧].إن فكرة كون المجتمع منبعا للقيم وأن الخير هو ما يكون نافعا للمجتمع والشر هو مايؤذي سلامته وفعاليته، هي عنصر جوهري في المفهوم الكلاسيكي للحداثة، وصياغة فكر سياسي واجتماعي جديد على هذا الأساس يمثل ارتباط الحداثة بالعلمنة[١٤٨]. لذا أدت القطيعة مع الدين، إلى قطيعة مع الأخلاق، لأنه لا يمكن أن يكون هناك أخلاق من غير دين. إن مفهوم الحداثة الذي بلوره فلاسفة التنوير هو مفهوم ثوري، ولكنه لا يزيد على ذلك فهو لايحدد ثقافة ولا مجتمعًا. إنه

---

(١٤٤) انظر:انتحار الغرب ص(٢٣٩).

(١٤٥) انظر:حكمة الغرب (١٣٣/٢).

(١٤٦) انظر:حكمة الغرب (١١٦/٢) بتصرف.

(١٤٧) انظر: نقد الحداثة.ص(٣٠).

(١٤٨) نقد الحداثة.ص(٣٦-٣٧).

يشعل الكفاح ضد المجتمع التقليدي أكثر من كونه يلقي الضوء على آليات عمل مجتمع جديد[١٤٩]. إن انتصار الحداثة يعني إلغاء المبادئ الخالدة والقضاء على كل جوهر، وسوف تذهب عملية القضاء على الذات إلى مدى أبعد[١٥٠]. يقول دانييل بيل Daniel Bell (١٩١٩ -٢٠١١) أن: "الثقافة الحداثية لاتتفق في جملتها والأساس الأخلاقي للسلوك الهادف والعقلاني للحياة"[١٥١].

٦ - أنها فلسفة هدم لا بناء. فالحداثة ليست فلسفة للتقدم، يمكننا أن نلمح فيها قطيعة مع التراث وفكرا للعلمنة، ولتدمير العالم المقدس[١٥٢]. ذلك أن الجزم بأن التقدم هو السير نحو الوفرة والحرية والسعادة وبأن هذه الأهداف الثلاثة وثيقة الصلة ببعضها ليس إلا أيديولوجيا يكذبها التاريخ باستمرار. بل وأكثر من ذلك كما يقول النقاد الراديكاليون إن ما نسميه مملكة العقل أليس هو السيطرة المتنامية للنظام على الفاعلين، ولفرض السوية والتنميط.ثم أليس باسم العقل وكونيته أن امتدت سيطرة الرجل الغربي الذكر الراشد والمتعلم على العالم كله؟ كيف لا تكون مثل هذه الانتقادات مقنعة في نهاية قرن سادته الحركة الشيوعية التي فرضت على العالم نظما شمولية قائمة على العقل وعلى العلم وعلى التقنية؟[١٥٣].

ويتضح الهدف الفوضوي للحداثة من تحطيم تواصل التاريخ وفصم عرى استمراريته، وتثور الحداثة على تكريس وظائف التراث، وتعيش الحداثة على التمرد على كل ما هو معياري، ويعد هذا التمرد طريقة من طرق تحديد مقاييس الفضيلة

---

(١٤٩) نقد الحداثة.ص(٤٠).

(١٥٠) نقد الحداثة.ص(٥٤).بتصرف.

(١٥١) التناقضات الحضارية للرأسمالية، نقلا عن بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٢).

(١٥٢) آلان تورين، نقد الحداثة، ص(٤٦).

(١٥٣) آلان تورين، نقد الحداثة، ص(٢٠).

والمنفعة، ويفتنه الهلع الذي يصاحب عملية انتهاك حرمة المقدسات وضرب الثوابت[١٥٤]."إن فكرة الحداثة في شكلها الأكثر صلابة والأشد تواضعا عندما تحددت بتدمير النظم القديمة وبانتصار العقلانية قد فقدت قوتها في التحرر وفي الإبداع. ولا تستطيع الصمود أمام القوى المتعارضة "[١٥٥].

المسألة الخامسة: ما بعد الحداثة وعلاقتها بالحداثة والتنوير

كان تيار ما بعد الحداثة نتيجة حتمية للمبالغة المفرطة في العقلانية، وما أنتجته من أنظمة شمولية، وفي ذات الوقت الفردانية المنغلقة على الذات، حيث كرست تلك المذاهب لمجتمع أناني على مستوى الفرد، شمولي على مستوى الدولة ونظام الحكم.

حاول أنصار الحداثة الترقيع لها لكن الطوفان الجارف كان أكبر منها، وتعللوا بأن الحداثة مشروع لم ينجز. وإلى الآن يا ترى هل الحداثة مشروع أنجز أو لا؟.هذا وإن تيار ما بعد الحداثة العاتي كان مصادما للعقل، مبالغا في اللامعقولية والفوضوية حتى وصمت بالعدمية[١٥٦].

١– تعريف ما بعد الحداثة

تشير كلمة ما بعد الحداثةpostmodernism إلى نوع من الثقافة المعاصرة، ومصطلح مابعد التحديث postmodernity يعني فترة تاريخية معينة. وفكر ما بعد التحديث يتشكك في المفاهيم التقليدية للحقيقة والعقل والهوية والموضوعية، وفي فكرة اتجاه العالم نحو التقدم والتحرر، وفي القصص الشمولي، والتفسيرات

(١٥٤) الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢٠٢)، نقد الحداثة.ص(٥٦).

(١٥٥) نقد الحداثة.ص(٢٢).

(١٥٦) على سبيل المثال: سمى جياني فاتيمو كتابه"نهاية الحداثة، الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة مابعد الحداثة".

النهائية[١٥٧]. وهو يرى العالم على عكس أنماط التنوير؛ كشيء عرضي وبلا أساس ثابت، ومتنوع، وغير مستقر، وغير حتمي فهو عبارة عن مجموعة من الثقافات غير الموحدة، التي يتولد عنها درجات من التشكك في موضوعية الحقيقة والتاريخ والمفاهيم، وثبات الهويات[١٥٨]. ويصف ليوتار وضع المعرفة في الدول المتطورة ويستخدم كلمة ما بعد حداثي لوصف هذا الوضع، وأنها تشير إلى حالة ثقافتنا -كما يقول - بعد التحولات التي غيرت قواعد اللعبة في العلم والأدب والفن منذ نهاية القرن التاسع عشر[١٥٩]. ويعرف ليوتار ليوتارLyotard (١٩٢٤ -١٩٩٨) ما بعد الحداثة بقوله: "التشكك إزاء الميتا -حكايات. هذا التشكك هو بلا شك نتاج التقدم في العلوم، لكن هذا التقدم بدوره يفترضه سلفا"[١٦٠].فالتشكيك محور لما بعد الحداثة، لذا يعرفها البعض بأنها: "نهاية للاعتقاد بالتقدم والتطور المباشر في التاريخ الاجتماعي، ودخول المجتمع إلى مرحلة النسبية الرافضة للحقائق المطلقة"[١٦١]. فهي نقد للدعاوى الكلية للعقل، ونفي للأسس الأخلاقية والفلسفية أو حتى الشرعية. مع مناهضة للمنهج باعتباره أساس العلم. فالعلم -في مابعد الحداثة - مجرد مؤسسة فوضوية، والقاعدة الوحيدة الصالحة هي أن كل شيء مقبول[١٦٢].

---

(١٥٧) هي مايسميه السرديات الكبرى، وهي الأديان التي تفسر الكون ووجود الإنسان، والنظريات الكبرى أو الأيديولوجيات كالماركسية والليبرالية والقومية وغيرها.

(١٥٨) انظر:تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة ص(٧)، وقد كان نقده لما بعد الحداثة من منظور اشتراكي، سياسي ونظري انظر ص(٩-١٠).

(١٥٩) جيمس وليامز، ليوتار نحو فلسفة ما بعد الحداثة ص(٤٧).

(١٦٠) ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، ص(٢٤)، عن ما بعد الحداثة والتنوير، ص(١٧).

(١٦١) عن باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٢٠٣).

(١٦٢) نقد الحداثة ص(٢٢٠)، ما بعد الحداثة والتنوير، ص(١٩).

فهو انتقال من فوضوية الحداثة إلى فوضوية ما بعد الحداثة، القائمة على النسبية، والشك، والاختلاف والتعددية المفرطة المؤدية لفقدان الهوية، وإبطال كل الحقائق التي جاءت بها الأديان أو الفلسفات، ومن ثم خلق حقائق جديدة وليس اكتشافها، فهي ليست موجودة.

٢- تاريخ ظهور المصطلح

أول من استخدم كلمة "ما بعد حداثي" هو رودولف بانفيتش Rudolf Panwitz عام ١٩١٧، بغية وصف عدمية ثقافة القرن العشرين(١٦٣).

وما بعد الحداثة تعني المرحلة اللاحقة للحداثة والتي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وما صحبته تلك الحروب من نتائج وآثار على الوعي الأوروبي، دفعه للقيام بعملية نقدية شاملة وجذرية لمشروع التنوير والحداثة، وظهرت في شكلها الفلسفي في سبعينيات وثمانينات القرن العشرين(١٦٤). حيث يرجع تحديد المصطلح إلى جان فرانسوا ليوتار في كتابه الوضع ما بعد الحداثي عام ١٩٧٩(١٦٥).

وقد أسس النقد النيتشوي للحداثة لتيار خاص به، تيار يسعى إلى تقويض بداهات العقلانية الغربية، وكل القيم الملازمة لها، عن طريق رفضه للقول بمنطقية الوجود، أو الإيمان بغائية الكون(١٦٦). وعلى حد تعبير جياني فاتيمو: "يمكن التأكيد

---

(١٦٣) سياسة ما بعد الحداثية، ليندا هتشيون، مقدمة المترجم ص(٨). وانظر لأقوال أخرى في تاريخ الظهور بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة ص(١٦)، ما بعد الحداثة والتنوير ص(١٢).

(١٦٤) انظر: ما بعد الحداثة والتنوير، ص(١٤)، أوهام ما بعد الحداثة ص(٤٢)، باسم خريسان، ما بعد الحداثة ص(١٨٢).

(١٦٥) انظر:القول الفلسفي للحداثة، ص(٥)، ما بعد الحداثة والتنوير ص(١٦).

(١٦٦) انظر:رضوان جودت، صدى الحداثة ص(٤١)، ما بعد الحداثة والتنوير، ص(١٥). تشكيل العقل الحديث ص(٣١٨)، نيتشه، هذا هو الإنسان ص(١٠٣).

بكامل الشرعية أن ما بعد الحداثة الفلسفي ولد في كتابات نيتشه" [١٦٧]، يوضح ذلك بقوله: "ينحل مفهوم الحقيقة ذاته، أو مايعني الشيء ذاته بموت الإله، وقد قتله فرط التدين وافتعال التدين...يرى نيتشه أننا نخرج حقا من الحداثة بفضل هذه النتيجة العدمية. لئن تلاشى مفهوم الحقيقة، ولئن تلاشى كل أساس للاعتقاد بأساس...توجد اللحظة التي يمكن تحديدها بوصفها ميلاد ما بعد الحداثة في الفلسفة." [١٦٨]، ويقول ريتشارد تارناس: "وبكل المعايير فإن النبي المركزي لعقل ما بعد الحداثة هو فردريك نيتشه، بنظرته الجذرية، وبوعيه النقدي السيادي، وبتوقعه المتناقض تناقضا بالغ الحدة للعدمية الناشئة في الثقافة الغربية"[١٦٩]. ومجمل العدمية لدى نيتشه (Nietzsche١٨٤٤ -١٩٠٠): موت الألوهة، وسقوط القيم العليا، والأخلاق[١٧٠]. يقول نيتشه عن كتابه (ما وراء الخير والشر): "هذا الكتاب ١٨٨٦ هو في جوهره نقد للحداثة؛ للعلوم الحديثة والفنون الحديثة، ولم تستثن منه حتى السياسة الحديثة"[١٧١].

ويؤكد ليوتار أن ما بعد الحداثة تستلهم نقدها للحداثة والتنوير من فلسفة كانط وفيتغنشتين Wittgenstein (١٨٨٩ -١٩٥١) وأدورونو، وبعض الفلاسفة الفرنسيين الذين وصفهم هابرماس بالمحافظين الجدد[١٧٢].

---

(١٦٧) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة، ص(١٨٤)، وانظر:ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي، ص(٤٧١)، تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة ص(٢٢٧).

(١٦٨) جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١٨٧)، وانظر: حكمة الغرب (١٥٠/٢).

(١٦٩) ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي، ص(٤٧١).

(١٧٠) انظر: نهاية الحداثة ص(٢٤)، نيتشه، هذا هو الإنسان ص(١٣، ١٠٧-١٠٨، ١٥٤-١٥٥، ١٦٣-١٦٤).

(١٧١) نيتشه، هذا هو الإنسان ص(١٣١).

(١٧٢) ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي ص(٨٠)، عن ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٢٠).

ومن أبرز رموز ما بعد الحداثة: جان فرانسوا ليوتار، وكتابه "الوضع ما بعد الحداثي"، وإيهاب حسن، الأمريكي من أصل مصري، المنظر لما بعد الحداثة منذ السبعينات(١٧٣).

هل كانت ما بعد الحداثة فلسفة واسعة النطاق، أم أن انتشارها محدود؟ لا يزال هذا الأمر محل نقاش(١٧٤). وتكاد الأدبيات الحديثة تستغرق في وصف أزمة الحداثة وفي بيان رثاثتها وتناقضاتها(١٧٥).

٣- علاقة ما بعد الحداثة بالحداثة والتنوير

مما لاشك فيه أن فكرة ما بعد الحداثة قد ظهرت نتيجة للوعي بأزمة الأسس التي أعلنتها الحداثة ومشروع التنوير وذلك منذ بداية القرن العشرين، فما بعد الحداثة عبارة عن توجه نقدي للتنوير والحداثة وقيمهما (١٧٦). لذا كانت العلاقة بين ما بعد الحداثة، والحداثة والتنوير علاقة قطيعة وانفصال(١٧٧). بل أبعد من ذلك حيث قامت ما بعد الحداثة على تفكيك مشروع الحداثة والتنوير، ووضعه تحت مطرقة النقد والتقويض. حيث يؤكد أتباع هذا التيار على أن الأدوات والمعطيات الفكرية التي قدمت من قبل فلاسفة الأنوار والحداثة لم تعد صالحة لتفسير عالمنا الحديث، مما يجعلنا بأمس الحاجة لأطر معرفية جديدة للتعامل مع واقعنا الجديد(١٧٨).حيث ترفض ما بعد

(١٧٣) رضوان جودت، صدى الحداثة، ص(١٧)، باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٢٣٢).

(١٧٤) انظر:أوهام ما بعد الحداثة ص(٨).

(١٧٥) هنري لوفيفر، ما الحداثة ص(٤٥) نقلا عن صدى الحداثة ص(٣٧).

(١٧٦) انظر: مابعد الحداثة والتنوير، ص(١٤-١٥)، باسم خريسان، ما بعد الحداثة، (٢٠٣-٢١٥).

(١٧٧) ما بعد الحداثة والتنوير، ص(٢١).

(١٧٨) انظر:سي رايت مليز، من العصر الحديث إلى العصر ما بعد الحديث، عن: باسم خريسان، ما بعد الحداثة، (٢١٦).

الحداثة الحقيقة المطلقة التي ربطها التنوير بالعقل، لذا نزعت للاعقلانية، وللتشكيك في كل شيء، كما رفضت تقديس الذات[١٧٩].كما وجهت نقدا لمباديء التنوير كالحرية والعدالة والمساواة. أما بداية نقد الحداثة فكان من نيتشه، ثم دعم هذا التوجه النقدي مارتن هيدجر Martin Heidegger (١٨٨٩ -١٩٧٦)، ثم مايسمى بالمحافظين الشباب أوالنتشويين الجدد[١٨٠]؛ أمثال ميشيل فوكو Michel Foucault (١٩٢٦ -١٩٨٤)، وجاك دريدا Jacques Derrida (١٩٣٠ -٢٠٠٤)[١٨١]. ويميز هابرماس وبيتر بروكر بين:

١ -الاتجاه المناهض للحداثة لدى المحافظين الشبان، يمثل هذا الخط: جورج باتاي، ميشيل فوكو، جاك دريدا.

٢ -وبين ما بعد الحداثة لدى المحافظين القدامى: الذين لا يسمحون أن يوصموا بعار الحداثة الثقافية، ويتابعون اضمحلال العقل المادي والتمييز بين العلم والأخلاق والفن، ويرمقون الرؤية العالمية الحديثة وعقلانيتها الإجرائية بحزن بالغ، وينصحون بالانسحاب إلى موقف سابق على الحداثة.

٣ -وبين ما بعد الحداثة لدى المحافظين الجدد[١٨٢].

---

(١٧٩) انظر: باسم خريسان، ما بعد الحداثة، (٢١٠) مختصرا وبتصرف.

(١٨٠) أطلق هابرماس هذا اللقب على فوكو ودريدا، في كتابه الحداثة مشروع لم ينجز، انظر:الحداثة وما بعد الحداثة ص(١٩٨)، ما بعد الحداثة والتنوير، (٤٧) (٥٣).

(١٨١) انظر:ما بعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

(١٨٢) الحداثة وما بعد الحداثة ص(٢١٦-٢١٧) (١٩٨)، هابرماس، الحداثة مشروع لم ينجز، عن ما بعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

وفي حين اتخذ التنوير موقفا عدائيا من الدين، نجد ما بعد الحداثة رغم عدم إيمانهم بوجود تصميم وتخطيط مسبق من خالق، إلا أنها رفضت تلك القطيعة، ونظرت للدين كمعطى ثقافي(١٨٣)، فهم يرون إمكانية صحة جميع الأديان، دون أن يكون هناك حق وباطل، اعتمادا على مبدأ النسبية.

٤- نقد ما بعد الحداثة

ما بعد الحداثة في حقيقته هو إمعان في الشك واللامعقولية، ومنع لوصم شيء بأنه حق مطلق ومن ذلك الأديان السماوية، وتذويب لكل ما اتفقت عليه البشرية من الحقائق، ونسف لخبرات الأمم وعلومها، دون استناد على شيء سوى الشك في كل شيء!. وهذا الإمعان في الخروج عن الإطار، قد طاله سيل من النقد الجارف من الأوساط الغربية ذاتها، فقد انتقدت مابعد الحداثة لأفكارها حول النسبية الحضارية، والأخلاق التقليدية، ونزوعها إلى الشك، وعدائها لأفكار الوحدة والترابط. وللتنظيم المنضبط، وفقدانها لأية نظرية تغطي العمل السياسي(١٨٤). وفلاسفة ما بعد الحداثة يشددون على أن كل شيء نسبي، فالحقيقة أصبحت رأي شخصي، وبالتالي لا يمكن أن نعرف طبيعة الحقيقة(١٨٥)، بل لا يحق لأحد ادعاء امتلاك الحقيقة، فهي نسبية وليست مطلقة، والعقل يبني الحقيقة ولا يكتشفها، واللغة حيث تتحكم في بناء وتشكيل رؤيتنا للحقيقة، وحيث أن الشعوب والحضارات متنوعة الثقافات واللغات؛ ما يجعل الحقيقة نسبية ولا يحق لأحد ادعاءها(١٨٦). بل دين ما بعد الحداثة هو عملية

(١٨٣) انظر: باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٢٢٠-٢٢١) بتصرف.

(١٨٤) انظر: أوهام ما بعد الحداثة، ص(٢٢٩).

(١٨٥) انتحار الغرب ص(٢١٦)، أوهام مابعد الحداثة ص(٢٢٧).

(١٨٦) انظر: باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٢١٨-٢١٩).

مزج لديانات مختلفة[١٨٧]. وهذا التقرير ينسف حقيقة الدين الحق والوحي، ويلغيها تماما، كما أنه السبب في انتشار الديانات الروحية التي هي خليط من الوثنيات الشرقية في المجتمع الغربي. ولأن الحقيقة من المستحيل الوصول إليها فهي إما أن تكون لا معنى لها أو تعسفية، ما دفعهم إلى رفض أي نظرية تحتكر الحقيقة في أي مجال، كما أن قولهم بأن الحقيقة نسبية يشكلها كل إنسان بنفسه، ولا تفرض عليه من الخارج، وليس هناك صحة لآراء معينة أو خطأ دائم لآراء معينة، أي ليس هناك إطلاقية في أي شيء في الحياة[١٨٨] ؛ أدى للخروج على الأديان والأعراف والتقاليد العالمية، وأصبح التوجه لقبول ما تنفيه الفطرة السوية من الشذوذ والمخدرات ونحوها. لذا فإن الوضع ما بعد الحداثي كما استنتجه جيمس وليامز هو:"مجتمعات مفتتة ذات عدد كبير من القوانين الأخلاقية والاجتماعية المختلفة والمتناثرة"[١٨٩].كما أن ما بعد الحداثة بدعوتها لعدم ثبات المعنى، أصبحت عملية هائلة لتدمير المعنى، وصارت أعمال ما بعد الحداثة توصف بأنها أعمال فاقدة للعمق والتحديد[١٩٠]. وأدى هذا إلى تدمير تفسير السلف للنصوص المقدسة، وإعطاء الحق لكل أحد لتفسيرها كما يرى.

---

(١٨٧) انظر: ما بعد الحداثة، ص(٢٢١).

(١٨٨) انظر: ما بعد الحداثة، ص(٢٢٤).

(١٨٩) جيمس وليامز، ليوتار؛ نحو فلسفة ما بعد الحداثة ص (٥٩).

(١٩٠) انظر: باسم خريسان، ما بعد الحداثة، ص(٢٢٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛ فقد بين هذا البحث عدة أمور عن هذه المذاهب والتيارات الفكرية التي عصفت بالغرب، منها:

١ -أن هذه التيارات والمذاهب الفكرية اتفقت في بعض الجوانب، وافترقت واختصت بجوانب أخرى، حيث أجمعت هذه المذاهب على نبذ الدين، وتحرير العقل من كل قيد وسلطة، فاحتكم التنوير والعلمانية والحداثة إلى العقل وغلوا فيه، بينما قدس الليبراليون الحرية والمنفعة الفردية، القائمة على مجرد اللذة والهوى والشهوة، وانقلب تيار ما بعد الحداثة على قانون العقل والمطلق وبارزه بالمحاربة.

٢ - أن التنوير هو القاعدة الفلسفية والبيئة الفكرية التي ظهر منها العلمانية والليبرالية والحداثة. بل البعض يجعل التنوير رديفا للعلمانية والحداثة.

٣ - أن التنوير والحداثة كانتا سببا في ظهور مذاهب معارضة لها في تيار ما بعد الحداثة؛ بما فيه من مذاهب فوضوية وعدمية.

٤ -الصلة الوثيقة بين الحداثة والعلمانية، واتفاقها على أهداف التنوير وهي التقدم والعقلانية، وتهميش الدين.

٥ -النتائج الفادحة في المجتمع الغربي المترتبة على الغلو في العقل، ونبذ الدين، والفردانية والنفعية، والحرية غير المنضبطة.

٦ -أن هذه المذاهب عجزت عن أن تكون مصدرا مناسبا للأخلاق، مما يحيل لزاما للعودة إلى الدين والإيمان، المتمثل في الدين الإسلامي خاتم الأديان السماوية وناسخها.

٧ - أن العقل الذي احتكم إليه الغرب، خرج على نفسه وانتكس، واضطرب أيما اضطراب عندما اعتقد أنه هو القائد والسلطان القاهر، ولم يوصل تلك المجتمعات إلى السعادة الحقة التي تنشدها، والتي لا تكون إلا في ظل عبادة رب العباد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

[١] *آلام العقل الغربي*، ريتشارد تارناس، ت: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، كلمة، أبوظبي، ط الأولى، ١٤٣١ه.

[٢] *أزمة الضمير الأوروبي*، بول هازار، ت: جودت عثمان، محمد المستكاوي، مطبعة الكاتب المصري، القاهرة، ط الأولى، ١٩٤٨.

[٣] *اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها*، إدوارد جيبون، ت: محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثانية، ١٩٩٧.

[٤] *انتحار الغرب*، ريتشارد كوك، وكريس سميث، ت: محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان، الرياض، كلمة، أبوظبي، ط الأولى، ١٤٣٠ه.

[٥] *أوهام مابعد الحداثة*، تيري إيجلتون، ت: منى سلام، أكاديمية الفنون.

[٦] *تشكيل العقل الحديث*، كرين برينتون، ت: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤.

[٧] *التنوير*، دورينداً أوترام، ترجمة د.ماجد موريس إبراهيم، دار الفارابي، ط الأولى ١٤٢٩ه.

[٨] *ثلاثة نصوص: تأملات في التربية، ماهي الأنوار، ما التوجه في التفكير*، إمانويل كانط. ت: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط: ١، ٢٠٠٥.

[٩] *جدل التنوير*، ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو، ت: د. جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٦.

[١٠] *جدلية العلمنة، العقل والدين*، يورجن هابرماس، ت: حميد لشهب، جداول، بيروت، ط الأولى، ٢٠١٣.

[١١] *الحداثة ومابعد الحداثة*، بيتر بروكر، ت: عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ط الأولى ١٩٩٥.

[١٢] *حرية الفكر*، ج.بيورى، ت: محمد إسحاق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط الأولى، ٢٠١٠.

[١٣] *حكمة الغرب*، برتراند راسل، ترجمة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣.

[١٤] *الديمقراطية والدين*، مارسيل غوشيه، ترجمة شفيق محسن، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط الأولى، ٢٠٠٧.

[١٥] *روح الشرائع*، مونتسكيو، ترجمة عادل زعيتر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣.

[١٦] *سياسة ما بعد الحداثية*، ليندا هتشيون، ترجمة حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٩.

[١٧] *صدى الحداثة*، رضوان جودت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٣.

[١٨] *الطرق إلى الحداثة*، غيرترود هيملفارب، ت: د.محمود سيد، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٣٠.

[١٩] *عن الحرية*، جون ستيوارت مل، ت: هيثم كامل الزبيدي.

[٢٠] *النفعية*، جون ستيوارت مل، ت: حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى، ٢٠١٢.

[٢١] *العلمانية*، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مكتبة الألفين، الكويت.ط الثانية، ١٤٠٣.

[٢٢] *العلمانية*، سفر الحوالي، الدار السلفية، الكويت، ١٤٠٨ه.

[٢٣] *العلمانية*، غي هارشير، ت: رشا الصباغ، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥.

[٢٤] *العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة*، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٢.

[٢٥] *فكر حركة الاستنارة، وتناقضاته*، عبد الوهاب المسيري، دار نهضة مصر، ط الأولى، ١٩٩٨.

[٢٦] *القول الفلسفي للحداثة*، يورجن هابرماس، ت: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٦٥.

[٢٧] *الكلمات والأشياء*، ميشيل فوكو، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠.

[٢٨] *الليبراليون الجدد*، ديفيد هارفي، ت: مجاب الإمام، مكتبة العبيكان، ط الأولى، ١٤٢٩.

[٢٩] *الليبرالية وحدود العدالة*، مايكل ساندل، ت: محمد هناد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٩.

[٣٠] ليوتار، *نحو فلسفة ما بعد الحداثة*. جيمس وليامز، ت: إيمان عبد العزيز، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

[٣١] *ما بعد الحداثة*، د.باسم خريسان، دار الفكر، مكتبة الأسد، دمشق، ط الأولى، ١٤٢٥ه.

[٣٢] *ما بعد الحداثة والتنوير*، الزاواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٩.

[٣٣] *ما هي الأنوار*، ميشيل فوكو، ت: حميد طاس.

[٣٤] *مدخل إلى التنوير الأوروبي*، هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٥.

[٣٥] *مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية*، يورجن هابرماس، ت: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٦.

[٣٦] *المعجم الفلسفي*، د.جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

[٣٧] *مقدمة قصيرة عن الرأسمالية*، جيمس فولتشر، ت: رفعت السيد، دار الشروق، القاهرة ط الأولى، ٢٠١١.

[٣٨] *موسوعة لالاند الفلسفية*، أندريه لالاند، ت: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط الثانية، ٢٠٠١.

[٣٩] *النظرية العامة للتشغيل والفائدة*، جون كينز، ت: إلهام عيدروس، دار العين، القاهرة.

[٤٠] *نقد الليبرالية*، الطيب بوعزة، مجلة البيان الرياض، ط الأولى، ١٤٣٠.

[٤١] *نهاية الحداثة*، الفلسفات العدمية والتفسيرية، جياني فاتيمو، ت: فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٨.

[٤٢] *نهاية التايخ وخاتم البشر*، فرنسيس فوكو ياما، ت: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٣.

[٤٣] *نقد الحداثة*، آلان تورين، ت: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧.

[٤٤] *هذا هو الإنسان*، فردريك نيتشه، ت:علي مصباح، منشورات الجمل، ط الأولى، ٢٠٠٣.

The connection between the ideological roots of Enlightenment Liberalism, and Secularism, Modernism, and Postmodernism

Dr. Amal Abdulaziz Al amr
Associate Professor in the Department of Aqidah and contemporary doctrines.
Al- Imam Muhammad ibn Saud Islamic University.

Abstract. There is a connection between certain schools of thought , and their ideological roots overlap for many reasons. This study briefly reviews a collection of these schools and ideological trends ; such as enlightenment, liberalism, secularism, modernism and postmodernism. It also explains the history of their development and their most prominent figures. It also shows how they are all connected , and how enlightenment is the basis from which liberalism, secularism, and modernism emerged, and that postmodernism is a form of rebuttal and rebellion against those schools of thought.

And after presenting each doctrine and explaining its ideological relations it is then briefly criticized. Thus those doctrines are exposed , and their negative effects on individuals and on society are illustrated, and how they are also rejected by rational Westerns.

It warns the Muslim community not to be fooled by their appealing allegations.